

رسالة ناصيف

أزواج مافيد في الامم الغريبة



0161019

Bibliotheca Alexandrina

الزَّوْجُ مَا قَيْدُ
فِي
الدَّخُولِ نَيْتِ

إميد ناصيف

الزَّوْجُ مَا قِيلَ
فِي
الدُّخُولِ نَيْلِ

وَالرُّجُوعُ
بِيرُوتَ

جَمِيعُ الْحَقُوقِ مَحْفُوظَةٌ لِذَا رِجَالِ الْجِيلِ

الطبعة الأولى

١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م

المقدّمة

يُقصد بـ «الإخوانيّات»، أو «الأدب الإخوانيّ» ما يتبادله الأدباء والكتاب فيما بينهم من رسائل أو ما يجري بينهم من نوادر، ومداعبات شعريّة، وما إلى ذلك. جاء في «المعجم المفصل في اللغة والأدب» للدكتورين اميل يعقوب وميشال عاصي ما يلي:

«الإخوانيّات مصطلح تداوله النقاد، ودارسو الأدب لتعيين لون من ألوان الكتابة الشعريّة والثريّة التي تندرج في إطار المراسلات المتداولة بين الأصدقاء والخلان، أو في نطاق استحضار طيب العيش معاً، وتذكّر أيّام الودّ والهناء، وتأكيد الوفاء لها والالتزام بعهودها، وغير ذلك ممّا يتطارحه المتوادّون في مكاتباتهم، ويتوارد على قرائح الشعراء من ذكرى الأصدقاء أو مجالس الأحباب.

وأدب الإخوانيّات قد يأتي في قصائد مستقلّة بذاتها، وهذا نادر في الشعر عامّة، وقد يتضمّنه مقطع في قصيدة، إلّا أنّه غالب في الرسائل التي تستأثر بمعظم ما جاء منه في العربيّة، والتي تتسم بخصائص الأسلوب الرائج في كلّ عصر، وبتناول الموضوعات المطروحة في كلّ بيئة لغويّة أو فكريّة أو أدبيّة، فضلاً عمّا يقتضيه المقام من بثّ الشوق والحنين، وبعث الذكريات، وتقديم المجاملات، وإبراز مقدرة الكتاب على التمكن من أداة

التعبير اللغوي في النثر كما في الشعر . وفي خزانة الأدب العربي تراث قيّم من الإخوانيات تضافرت على إنشائه أقلام كبار أهل القلم في مختلف المراحل الغابرة والمعاصرة .

ومع معرفتنا الواضحة بما يتضمّنه أدب الإخوانيات ، فقد حرصنا على التقديم لهذا الأدب بآبواب على النحو التالي :

- الباب الأول : الأخ في الدين .
 - الباب الثاني : الأخ في الأمثال .
 - الباب الثالث : الأخ في الحكمة .
 - الباب الرابع : في رثاء الأخوة .
- وبعد ، أرجو ، أخي القارئ ، أن يُعجبك ما اخترته لك من أدب الإخوانيات ، والله الموفق والمعين .

المؤلف

الباب الأول:

الأخ في الدين

الفصل الأول: الأخ في الدين الإسلامي

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

(الحجرات: ١٠)

* * *

﴿فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾.

(آل عمران: ١٠٣)

* * *

- انصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا كَانَ أَوْ مَظْلُومًا.

(حديث شريف)

* * *

- لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ.

(حديث شريف)

* * *

- لا تحاسدوا، ولا تناجسوا^(۱)، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يبيع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخوانا.

(حدیث شریف)

* * *

(۱) ولا تباغضوا لا ترايدوا

الفصل الثاني: الأخ في الدين المسيحي

- مَنْ يَصْنَعُ مِثْلَةَ أَبِي الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ هُوَ أَخِي وَأَخْتِي وَأُمِّي .

(متى ١٢ : ٥٠)

* * *

- بِمَا أَنْتُمْ فَعَلْتُمُوهُ بِأَحَدِ إِخْوَتِي الْأَصَاغِرِ فَبِي فَعَلْتُمْ .

(متى ٢٥ : ٤٠)

* * *

- إِنْ أَخْطَأَ إِلَيْكَ أَخُوكَ فَوَبِّخْهُ ، وَإِنْ تَابَ فَاغْفِرْ لَهُ ، وَإِنْ أَخْطَأَ إِلَيْكَ سَبْعَ مَرَّاتٍ فِي الْيَوْمِ ، وَرَجَعَ إِلَيْكَ سَبْعَ مَرَّاتٍ فِي الْيَوْمِ قَائِلًا : أَنَا تَائِبٌ ، فَاغْفِرْ لَهُ .

(لوقا ١٧ : ٣ و ٤)

* * *

- إِنْ قَالَ أَحَدٌ إِنَّي أَحِبُّ اللَّهَ وَأَبْغَضَ أَخَاهُ ، فَهُوَ كَاذِبٌ .

(١ يو ٤ : ٢٠)

* * *

- مَنْ يُحِبِّ اللَّهُ يُحِبِّ أَخَاهُ أَيْضًا.

(رسالة يوحنا الأولى ٤ : ٢١)

* * *

- أَلَيْسَ أَبٌ وَاحِدٌ لِكُلِّينَا؛ أَلَيْسَ وَاحِدٌ خَلَقَنَا؟

(ملاخي ٢ : ١٠)

* * *

- مَا أَحْسَنَ وَمَا أَجْمَلَ أَنْ يَسْكُنَ الْإِخْوَةُ مَعًا!

(مزامير ١٣٣ : ١)

* * *

- إِذَا افْتَقَرَ أَخُوكَ وَقَصُرَتْ يَدُهُ عِنْدَكَ فَاغْضُذْهُ.

(لاويين ٢٥ : ٣٥)

* * *

الباب الثاني:

الأخ في الأمثال

الفصل الأول: من الأمثال العربيّة

- رَبُّ أَخٍ لَكَ لَمْ تَلِدْهُ أُمُّكَ .

* * *

- أَخٌ أَرَادَ الْبِرَّ صَرْحًا فَاجْتَهَدَ .

* * *

- أَخُو الظُّلَمَاءِ أَغْشَى بِاللَّيْلِ^(١) .

* * *

- أَخُو الْكِظَاطِ مَنْ لَا يَسْأَمُهُ^(٢) .

* * *

- أَخُوكَ أَمْ الذُّنْبُ؟

* * *

- أَخُوكَ أَمْ اللَّيْلُ؟

* * *

(١) يُضْرَبُ لِمَنْ يُخْطِئُ حَاجَتَهُ، وَلَا يَبْصُرُ الْمَخْرَجَ مِمَّا وَقَعَ فِيهِ .

(٢) الْكِظَاطُ: الشَّدَّةُ وَالتَّعَبُ وَطُولُ الْمَلَاذِمَةِ، وَالْمَمَارَسَةُ الشَّدِيدَةُ فِي الْحَرْبِ، وَالْمَعْنَى أَخُو الشَّرِّ لَا يَمَلُّهُ .

- أَخُوكَ الْبَكْرِيُّ وَلَا تَأْمَنَّهُ.

* * *

- أَخُوكَ مَنْ آسَاكَ.

* * *

- أَخُوكَ مَنْ صَدَقَكَ.

* * *

- أَخُوكَ مَنْ صَدَقَكَ النَّصِيحَةَ.

* * *

- أَخَاكَ أَخَاكَ إِنَّ مَنْ لَا أَخَا لَهُ كَسَاعٍ إِلَى الْهَيْجَا بِغَيْرِ سِلَاحٍ
(مُسْكِينِ الدَّارِمِيِّ)

* * *

- الْمَرْءُ مِرَاةُ أَخِيهِ.

* * *

الفصل الثاني: من الأمثال اللبنانية

- الأخ جناح.

* * *

- الأب جلاب، والأخ سلاب.

* * *

- إخوة شقّ المشار.

* * *

- الخيّ خيّ مرثو، والأخت بتخلف بختاؤ.

* * *

- خيّ من إمّي مثل الهوا بكمي.

* * *

- الدم ما يصير مي.

* * *

- الي بقلع ثابو بيبرد.

- الكلب ما بَعْضْ خَيْو .

* * *

مَنْ تَرَكَ عَشِيرَتُو ذَلَّ .

* * *

ما بِجِنِّ عَ الْعُودِ غَيْرِ قِشْرُو .

* * *

الفصل الثالث: من الأمثال العالمية

- الأخ صديقٌ تَمْنَحُهُ الطبيعةُ.

(مثل يوناني)

* * *

- عندما يَعمَلُ الإخوةُ معًا تَتَحَوَّلُ الجبالُ إلى ذَهَبٍ.

(مثل صيني)

* * *

- لا تَضَعِ إضْبَعًا بَيْنَ أَخَوَيْنِ.

(مثل إسباني)

* * *

- لا صديقَ كالأخ، ولا عَدُوَّ كالأخِ.

(مثل هندي)

* * *

- أن يكونَ كُلُّ البشرِ إخوةً هو حُلْمٌ أولئك الذين لا إخوة لهم.

(مثل فرنسي)

– ثلاثة إخوة ثلاث قلاع.

(مثل برتغالي)

* * *

– مَنْ الصَّعْبُ أَنْ يَتَحَمَّلَ الْمَرْءُ بِسَهُولَةٍ مَجْدَ الْإِخْوَةِ أَوْ مَوْتَهُ.

(مثل تركي)

* * *

– عِنْدَمَا يَسَانِدُ الْإِخْوَةُ أَخَاهُ، فَلَيْسَ هُنَاكَ غَيْرَ اللَّهِ لِكَيْ يَمْتَحِنَهُمَا.

(مثل كوري)

* * *

– لِكُلِّ وَاحِدٍ أَبٌ وَأُمٌّ، وَلَكِنْ لَيْسَ ثَمَّةُ أَصْعَبُ مِنَ الْعُثُورِ عَلَى الْإِخْوَةِ.

(مثل صيني)

* * *

– عِنْدَمَا تُفْلِسَ يُمَكِّنُكَ اللُّجُوءُ إِلَى صَدِيقِكَ، وَلَكِنْ لَيْسَ إِلَى أَخِيكَ.

(مثل هندي)

* * *

– الْبَرْمِيلُ الْأَوَّلُ يَبِيعُ الْبَرْمِيلَ الثَّانِي، وَالْأَخْتُ تَزُوجُ الْآخَرَى.

(مثل صربي)

* * *

- الأخُ هو الأخُ، ولكنَّ الجدِّي يساوي ثمنه دائماً.

(مثل فارسيّ)

* * *

- الإخوة هم إخوة، ولكن جيوبهم ليست أخوات.

(مثل ألمانيّ)

* * *

الباب الثالث:

الأخ في الحكمة

الفصل الأول: في الحكمة العربيّة

- امَحْضْ أَخَاكَ النَّصِيحَةَ حَسَنَةً كَانَتْ أُمَ قَبِيحَةً.

(الإمام عليّ)

* * *

- فِتْنَةُ الْإِخْوَانِ عُرْسُ الشَّيْطَانِ.

(جَعْفَرُ الصَّادِقِ)

* * *

- أَعْجَزُ النَّاسِ مَنْ عَجَزَ عَنِ اكْتِسَابِ الْإِخْوَانِ، وَأَعْجَزُ مِنْهُ مَنْ ضَيَّعَ مَنْ ظَفِرَ مِنْهُمْ.

(الإمام عليّ)

* * *

- لِقَاءُ الْإِخْوَانِ نَزْهَةُ الْقُلُوبِ.

(حكمة عربيّة)

* * *

- الرَّجُلُ بِلَا إِخْوَةٍ كَالشَّمَالِ بِلَا يَمِينٍ.

(حكمة عربيّة)

– التارك للإخوان متروك.

* * *

– مُجَالَسَةُ الإخوان مَسْلَاةٌ لِلأَخْزَانِ.

* * *

– الأخ الصالحُ خَيْرٌ مِنْ نَفْسِكَ، لِأَنَّ النَّفْسَ أَمَارَةٌ بِالسُّوءِ، وَالْأَخُ الصَّالِحُ لَا يَأْمُرُ إِلَّا بِالْخَيْرِ.

(حكيم عربي)

* * *

– دوام السرور برؤية الإخوان.

* * *

– أَعِنْ أَخَاكَ وَلَوْ بِالصَّوْتِ.

* * *

– الْحَاجَةُ إِلَى الْأَخِ الْمُعِينِ كَالْحَاجَةِ إِلَى الْمَاءِ الْمُعِينِ.

* * *

– عَاتِبْ أَخَاكَ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ، وَارْذُدْ شَرَّهُ بِالْإِنْعَامِ عَلَيْهِ.

(الإمام علي)

* * *

الفصل الثاني: في الحكمة العالميّة

– غَضَبُ الإِخْوَةِ غَضَبُ الشَّيَاطِينِ.

غبريال مورييه (١٥٦٨)

* * *

– الدَّمُ لَا يَحُولُ دُونَ الاختلاف في المقام.

بيير كورناي (١٦٥١)

* * *

– أَنْ يَكُونَ كُلُّ الْبَشَرِ إِخْوَةً هُوَ حِلْمٌ أَوْلَتْكَ الَّذِينَ لَا إِخْوَةَ لَهُمْ.

شارل شانشول (١٨٨٠)

* * *

– لَا صَدِيقَةٌ تَعَادِلُ أَخْتًا.

كريستينا روسيني (١٨٦٢)

* * *

– مُعَاتَبَةُ الإِخْوَانِ خَيْرٌ مِنْ فَقْدِهِمْ.

؟؟؟

– ما مِنْ سُرُورٍ يَغْدِلُ لِقَاءَ الْإِخْوَانِ، وما مِنْ غَمٍّ يَغْدِلُ فِرَاقَهُمْ.
؟؟؟

* * *

– صِدَاقَةُ الْأَخْوَيْنِ أَشَدُّ مَتَانَةً مِنَ الْحَاجِزِ.
انتيستنيس (القرن الرابع ق.م.)

* * *

الفصل الثالث: في الشعر العربي

تَكْثُرُ مِنَ الْإِخْوَانِ مَا اسْطَغَتْ إِنْهُمْ عِمَادٌ إِذَا اسْتَنْجَذَتْهُمْ وَظَهِيرُ
وَمَا بِكَثِيرِ أَلْفُ خِلٍ وَصَاحِبٍ وَإِنْ عَدُوًّا وَاحِدًا لَكَثِيرُ
(مهدي بن سابق)

* * *

أَخَاكَ أَخَاكَ أَنْتَ، فَأَعْلَمْ، جَنَاحُهُ وَهَلْ يَنْهَضُ الْبَازِي بِدُونِ جَنَاحٍ؟

* * *

وَلَيْسَ أَخِي مَنْ وَدَّني وَهُوَ حَاضِرٌ وَلَكِنْ أَخِي مَنْ وَدَّني وَهُوَ غَائِبٌ

* * *

مَا ضَاعَ مَنْ كَانَ لَهُ صَاحِبٌ يَقْدِرُ أَنْ يُضْلِحَ مِنْ شَانِهِ
فَإِنَّمَا الدُّنْيَا بِسُكَّانِهَا وَإِنَّمَا الْمَرْءُ بِإِخْوَانِهِ

* * *

أَخَوَكَ مَنْ دَامَ عَلَى الْإِخَاءِ مَا أَكْثَرَ الْإِخْوَانَ فِي الرَّخَاءِ!
(السابوري)

* * *

أَخَوَكَ الَّذِي يَخْمِيكَ فِي الْغَيْبِ جَاهِدًا وَيَسْتُرُ مَا تَأْتِي مِنَ السُّوءِ وَالْقُبْحِ

وَيَنْشُرُ مَا يُرْضِيكَ فِي النَّاسِ مُغْلِنًا وَيُغْضِي وَلَا يَأْلُو مِنَ الْبِرِّ وَالنُّصْحِ
(التجبيبي)

* * *

يَمْضِي أَخُوكَ فَلَا تَلْقَى لَهُ خَلْفًا وَالْمَالُ بَعْدَ ذَهَابِ الْمَالِ مُكْتَسَبُ
(الفرزدق)

* * *

وَلَيْسَ أَخِي مَنْ وَدَّني بِلِسَانِهِ وَلَكِنْ أَخِي مَنْ وَدَّني فِي النَّوَائِبِ
وَمَنْ مَالُهُ مَالِي إِذَا كُنْتُ مُعْدَمًا وَمَالِي لَهُ إِنَّ عَضَّ دَهْرٍ بِغَارِبِ
فَلَا تَحْمَدَنَّ عِنْدَ الرُّخَاءِ مُوَاحِيًا فَقَدْ تُنْكَرُ الْإِخْوَانُ عِنْدَ الْمَصَائِبِ

* * *

وَدَّ صَاحِبُكَ مِنْ أَخٍ لَبِيبٍ أَفْضَلُ مِنْ قَرَابَةِ الْقَرِيبِ
(السابوري)

* * *

عَلَيْكَ بِإِخْوَانِ الثَّقَاتِ فَإِنَّهُمْ قَلِيلٌ، فَصِلْهُمْ دُونَ مَنْ كُنْتَ تَصْحَبُ
(البغدادي)

* * *

كَمْ مِنْ أَخٍ لَكَ لَمْ يَلِدْهُ أَبُوكَ وَأَخٌ أَبَوْهُ أَبُوكَ قَدْ يَجْفُوكَا
صَافٍ الْكِرَامَ إِذَا أَرَدْتَ إِخَاءَهُمْ وَأَعْلَمَ بِأَنَّ أَخَا الْحِفَاظِ أَخُوكَا
(ابن يعيش)

* * *

لا تَيَأْسَنْ مِنْ أَخٍ وَلَّى بِجَانِبِهِ وَإِنْ بَدَا لَكَ مِنْهُ سُوءٌ أَخْلَاقِ
إِنَّ السَّمَاءَ تُرَجِّى وَهِيَ نَازِحَةٌ إِذَا أَلَحَّتْ بِإِزْعَادٍ وَإِبْرَاقِ
(ابن الساعاتي)

* * *

إِذَا أَنْتَ لَمْ تُنْصِفْ أَخَاكَ وَجَدْتَهُ عَلَى طَرَفِ الْهَجْرَانِ إِنْ كَانَ يَغْقِلُ
(معن بن أوس)

* * *

أَخُوكَ الَّذِي إِنْ تَدْعُهُ لِمِلْمَةٍ يُجِبُكَ، وَإِنْ تَغْضِبُ إِلَى السَّيْفِ يَغْضِبُ

* * *

وَمَنْ يُفْتِّشْ عَنِ الْإِخْوَانِ يَلْقَاهُمْ فَجُلُّ إِخْوَانِ هَذَا الْعَصْرِ خَُوَّانُ
(أبو الفتح البستي)

* * *

أَخُوكَ الَّذِي إِنْ أَخَوَجَّتْكَ مِلْمَةٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَبْرَحْ لَهَا الدَّهْرُ وَاجِمَا
وَلَيْسَ أَخُوكَ بِالَّذِي إِنْ تَشَعَّبَتْ عَلَيْكَ أُمُورٌ ظَلَّ يُلْحَاكَ لَائِمَا
(المرقش الأصغر)

* * *

فَإِمَّا أَنْ تَكُونَ أَخِي بِحَقٍّ فَأَعْرِفَ مِنْكَ غَثِّي مِنْ سَمِينِي
وِإِلَّا فَاطْرِحْنِي وَاتَّخِذْنِي عَدُوًّا أَتَّقِيكَ وَتَتَّقِينِي
(المثقب العبدی)

* * *

أَحْفَظْ أَخَاكَ وَسَارِعْ فِي مَسَرَّتِهِ حَتَّى يَرَى مِنْكَ فِي أَعْدَائِهِ خَبْرُ
أَخَوِكَ سَيْفُكَ إِنْ نَابَتْكَ نَائِبَةٌ وَشَمَّرَتْ نَكْبَةً فِي عَظْفِهَا زَوْرُ
(عقيل بن هاشم)

* * *

إِنَّ أَخَاكَ الْحَقُّ مَنْ يَسْعَى مَعَكَ وَمَنْ يَضُرُّ نَفْسَهُ لِيَنْفَعَكَ

* * *

فَأَنْتَ أَخِي مَا لَمْ تَكُنْ لِي حَاجَةً فَإِنْ عَرَضَتْ أَيْقَنْتُ أَنْ لَا أَخَا لِيَا
كِلَانَا غَنِيٌّ عَنْ أَخِيهِ حَيَاتُهُ وَنَحْنُ إِذَا مُتْنَا أَشَدُّ تَغَانِيَا
(عبد الله الجعفري)

* * *

إِخْوَانُ هَذَا الزَّمَانِ كُلُّهُمْ إِخْوَانُ غَدِرٍ عَلَيْهِ قَدْ جُبِلُوا
طَوَوْا ثِيَابَ الْوَفَاءِ بَيْنَهُمْ وَصَارَ ثَوْبُ الرِّيَاءِ يُبْتَذَلُ

* * *

أَخَاكَ أَخَاكَ فَهُوَ أَجَلُ دُخْرِ إِذَا نَابَتْكَ نَائِبَةُ الزَّمَانِ
وَإِنْ بَانَثَ إِسَاءَتُهُ فَهَبْهَا لِمَا فِيهِ مِنَ الشُّيْمِ الْحَسَنِ
تُرِيدُ مُهَذَّبًا لَا غَيْبَ فِيهِ وَهَلْ عُوْدٌ يَفُوحُ بِلَا دُخَانٍ؟!
(الطغرائي)

* * *

أَتَطْلُبُ مِنْ أَخٍ خُلُقًا جَلِيلًا وَخَلَقُ النَّاسِ مِنْ مَاءٍ مَهِينِ
فَسَامِخْ إِنْ تَكَدَّرَ وَدُّ خُلٍّ فَإِنَّ الْمَرْءَ مِنْ مَاءٍ وَطِينِ
(صفي الدين الحلبي)

* * *

اغذِرْ أَخَاكَ عَلَى ذُنُوبِهِ واشتُرْ وَغَطُّ عَلَى عُيُوبِهِ
واضْبِرْ عَلَى بَهْتِ السَّفِيهِ ولِلزَّمانِ عَلَى خُطُوبِهِ
واغْلَمْ بِأَنَّ الْجِلْمَ عِنْدَ الغَيْظِ أَحْسَنُ مِنْ رُكُوبِهِ
(الشریف الرضوي)

* * *

أَحِبُّ مَنْ الْإِخْوَانِ كُلِّ مُؤَاتِي وَكُلِّ غَضِيضِ الطَّرْفِ عَنْ عَثْرَاتِي
يُؤَافِقُنِي فِي كُلِّ أَمْرٍ أُرِيدُهُ وَيَحْفَظُنِي حَيًّا وَبَعْدَ وَفَاتِي
فَمَنْ لِي بِهَذَا؟ لَيْتَ أَنِّي أَصَبْتُهُ فَقَاسَمْتُهُ مَا لِي مِنَ الْحَسَنَاتِ
تَصَفَّحْتُ إِخْوَانِي فَكَانَ أَقَلَّهُمْ عَلَى كَثْرَةِ الْإِخْوَانِ أَهْلُ ثِقَاتِي
(الإمام الشافعي)

* * *

عَلَيَّ لِإِخْوَانِي رَقِيبٌ مِنَ الصِّفَا تَبِيدُ اللَّيَالِي وَهُوَ لَيْسَ يَبِيدُ
يَذْكُرْنِيهِمْ فِي مَغِيبِي وَمَشْهَدِي فَسَيَّانٍ مِنْهُمْ غَائِبٌ وَشَهِيدُ
وَإِنِّي لَأَسْتَخِي أَخِي أَنْ أَبْرَهُ قَرِيبًا وَأَنْ أَجْفُوهُ وَهُوَ بَعِيدُ
؟؟؟

* * *

الباب الرابع:

في رثاء الأخوة

قال الرِّياشي: صَلَّى مُتَمِّم بن نُؤيرة الصُّبح مع أبي بكر الصَّدِّيق رضي الله تعالى عنه، ثم أنشد:

نِعم القَتِيلُ - إذا الرِّياحُ تَنَاولَحتْ بين البُيوت - قَتَلتْ يا ابنَ الأَزورِ^(١)
أَدَعَوته باللهِ ثم قَتَلته لو هُوَ دَعَاكَ بِذَمَّةٍ لم يَغْدِرِ
لا يُضْمِرُ الفَحشاءَ تحت رِدائِه حُلُو شَمائلِه عَفيفُ المِئزَرِ

قال: ثم بكى حتى سالت عينه العوراء. قال أبو بكر: ما دعوته ولا قتله. وقال مُتَمِّم:

وَمُسْتَضِحِّكَ مَنِّي أَدَعَى كَمُصِيبَتِي وليس أخو الشَّجُو الحَزِينِ بضاحِكِ
يَقُولُ أَتَبْكِي مِن قُبُورِ رَأَيْتِهَا لِقَبْرِ بِأَطرافِ المَلا فالدَّكادِكِ^(٢)
فَقُلْتُ لَهُ إِنَّ الأَسَى يَبْعَثُ الأَسَى فَدَعَنِي فَهَذِي كُلُّها قَبْرُ مالِكِ

* * *

وقال مُتَمِّم يَرثِي أخاه مالكا، وهي التي تُسمَّى أُمَّ المَراثِي:
لَعَمْرِي وما دَهْرِي بِتَأْبِينِ هالِكِ ولا جَزَعٍ مِمَّا أَلَمَ فَأَوَجَعَا^(٣)

(١) ابن الأزور: ضرار بن الأزور، وهو الذي قتل مالك بن نويرة.
(٢) الدكادك جمع دكدك. وهو من الرمل ما تكس واستوى.
(٣) ما دهري: أي ما همي وغايتي. ولا جزع، عطف على قوله «بتأبين». يقول: ليس همي بمرثية ميت وإظهار الجزع عليه ولكني أمدح أخي وأظهر فضله. أو لعله يريد أن أخاه قد عاجله الموت وأن هذا الوقت لم يكن لراثته.

لقد غَيَّبَ الْمِنْهَالُ تحتِ رِدَائِهِ
ولا بَرَمًا تُهْدِي النِّسَاءُ لِعَرْسِهِ
تَراه كَنَضْلِ السِّيفِ يَهْتَرُ لِلنَّدَى
فَعَيْنِي هَلَا تَبْكِيانِ لِمَالِكِ
وَأَزْمَلَةٍ تَمْشِي بِأَشْعَثِ مُحْتَلٍ
وما كانَ وَقَافًا إِذا الْخَيْلُ أَحْجَمَتْ
ولا بَكْهَامٍ سَيْفُهُ عَن عَدُوِّهِ
أَبَى الصَّبْرَ آيَاتُ أَرَاهَا وَأَنْنِي
وَأَنِّي مَتَى ما أَذْغُ بِأَسْمَكِ لَمْ تُجِبْ
تَحِيَّتَهُ مَتَى وَإِنْ كانَ نائِيًا
فَإِنْ تَكُنِ الْآيَامُ فَرَّقْنَ بَيْنَنَا
فَعِشْنَا بِخَيْرٍ فِي الْحَيَاةِ وَقَبْلَنَا
فَتَى غَيْرَ مِبْطَانِ الْعَشِيَّاتِ أَرْوَعًا^(١)
إِذا الْقَشْعُ من بَرْدِ الشِّتَاءِ تَقَعَّقَا^(٢)
إِذا لَمْ تَجِدْ عِندَ امْرِئِ السَّوءِ مَطْمَعًا
إِذا هَزَّتِ الرِّيحُ الْكَنِيفَ الْمُرْفَعَا^(٣)
كَفَرَّخِ الْحُبَارَى ريشُهُ قَدْ تَمَزَّعَا^(٤)
ولا طالِبًا من خَشْيَةِ الْمَوْتِ مَفْرَعَا^(٥)
إِذا هُوَ لاقَى حاسِرًا أو مُقَنَّعَا^(٦)
أَرى كُلَّ حَبَلٍ بَعْدَ حَبْلِكَ أَقْطَعَا^(٧)
وَكُنْتَ حَرِيًّا أَنْ تُجِيبَ وَتَسْمَعَا
وَأَمْسَى تُرابًا فَوْقَهُ الْأَرْضُ بَلَقَعَا
فَقَدْ بانَ مَحْمُودًا أَخِي جِئْنَ وَدَّعَا
أَصَابَ الْمَنَيا رَهْطٌ كِسْرَى وَتُبَّعَا

-
- (١) المنهال: رجل من بني يربوع ألقى ثوبه على مالك أخي متمم يستره به. والمبطان: الصخيم البطن. يريد أنه لا يتعجل العشاء انتظارًا في العشيات للضيفان، وهي وقت مجيئهم. والأروع: الذي يعجبك بحسنه وجماله.
- (٢) البرم: الذي لا يدخل مع القوم في الميسر، وهو ذم. والقشع: البيت من آدم أو جلد. والتقعق: صوت الجلد إذا يسر.
- (٣) الكنيف: حظيرة من شجر تحلل للإبل تقيها البرد. والمرفع: المرفوع.
- (٤) يريد «بالأشعث» ولدها. والمحثل: السيء الغذاء. وتمرع: تفرق.
- (٥) أي ليس الجبان الذي يدفعه قومه وينحونه لأنه ليس من رجال الحرب.
- (٦) الكهام: الكليل. والمقع: الذي عليه بيضة ومغفر. والحاسر: ضده.
- (٧) يقول: أبي الصبر معالم وآثارًا أراها من آثارك فأذكرك إذا رأيته فلا أقدر على الصبر. وبعد حبلك أقطعا أي قد ذهب الوفاء.

وَكُنَّا كَنَدَمَانِي جَدِيمَةً حِقْبَةً من الدهر حتى قيل لن يتصدَّعا^(١)
 فلَمَّا تَفَرَّقْنَا كَأَنِّي وَمَالِكَا لِطُولِ أَجْتِمَاعٍ لَمْ نَبْتَ لَيْلَةً مَعَا
 فَمَا شَارِفٌ حَنَّتْ حَيْنِيَا وَرَجَّعَتْ أَنِينَا فَأَبْكِي شَجْوَهَا الْبَرْكَ أَجْمَعَا^(٢)
 وَلَا وَجْدُ أَظَارٍ ثَلَاثِ رَوَائِمِ رَأَيْنَ مَجْرًا مِنْ حُورٍ وَمَضْرَعَا^(٣)
 بِأَوْجَدَ مِنِّي يَوْمَ قَامَ بِمَالِكِ مُنَادٍ فَصِيحٌ بِالْفِرَاقِ فَأَسْمَعَا
 سَقَى اللَّهُ أَرْضًا حَلَّهَا قَبْرُ مَالِكِ ذَهَابُ الْغَوَادِي الْمُدْجَنَاتِ فَأَمْرَعَا^(٤)

* * *

قيل لعمر بن بحر الجاحظ: إِنَّ الْأَصْمَعِيَّ كَانَ يُسَمِّي هَذَا الشَّعْرَ أُمَّ
 الْمَرَاثِي؛ فَقَالَ: لَمْ يَسْمَعْ الْأَصْمَعِيُّ:

أَيُّ الْقُلُوبِ عَلَيْكُمْ لَيْسَ يَنْصَدُعُ وَأَيُّ نَوْمٍ عَلَيْكُمْ لَيْسَ يَمْتَنِعُ

* * *

وقال الأصمعي: لَمْ يَبْتَدِ أَحَدٌ مَرْثِيَةً بِأَحْسَنَ مِنْ أَبْتَدَاءِ أَوْسَ بْنِ
 حَجَرٍ:

أَيْتُهَا النَّفْسُ أَجْمَلِي جَزَعَا إِنَّ الَّذِي تَحْذَرِينَ قَدْ وَقَعَا

(١) ندمانا حديمة. هما مالك وعقيل، نادما حديمة الأبرش، وكانا ردا عليه ابن أخته عمرو بن
 عدي فسألتهما حاجتهما فسألاه منادته، فكانا بديمية ثم قتلتهما.

(٢) الشارف المسنة من الإبل، وخضها لأنها أرق من الفتية لبعدها عن الولد. والبرك
 الألف من الجمال.

(٣) الأظار. النوق يعطس على حوار واحد. والروائيم: النوق تعطف على ولدها. والحوار:
 ولد الناقة.

(٤) الذهاب: جمع ذهبة وهي القطعة من السحاب. والغواضي: الغيوم التي تعدو بالمطر.
 والمدجنات: السحب الكثيفة السود. وأمرع: أخصب.

وبعدها قولُ زُمَيْلٍ^(١):

أَجَارَتْنَا مَنْ يَجْتَمِعُ يَتَفَرَّقِ وَمَنْ يَكُ رَهْنًا لِلْحَوَادِثِ يَغْلِقِ

* * *

قال ابن إسحاق صاحبُ المغازي: لما نزل رسولُ الله ﷺ الصَّفراءَ - وقال ابنُ هشام: الأثيل^(٢) - أمر عليُّ بن أبي طالب بضرب عنق النَّضْر بن الحارث بن كَلْدَة بن عَلْقَمَة بن عبد مَنَاف، صَبْرًا^(٣) بين يدي رسول الله ﷺ، فقالت أخته قُتَيْلَة^(٤) بنت الحارث ترثيه:

يا رَاكِبًا إِنَّ الْأَثِيلَ مَظِنَّةٌ	من صُبْحِ خَامِسَةٍ وَأَنْتَ مُوَفَّقٌ
أَبْلِغْ بِهَا مَيِّتًا بِأَنْ تَحْيِيَّةٌ	مَا إِنْ تَزَالُ بِهَا النَّجَائِبُ تَخْفِقُ ^(٥)
مَنِّي إِلَيْكَ وَعَبْرَةٌ مَسْفُوحَةٌ	جَادَتْ بِوَاكِفِهَا ^(٦) وَأُخْرَى تَخْتَقُ
هَلْ يَسْمَعُنِي النَّضْرُ إِنْ نَادَيْتُهُ	أَمْ كَيْفَ يَسْمَعُ مَيِّتٌ لَا يَنْطِقُ
أَمَحْمَدُ يَا خَيْرَ ضِيءٍ ^(٧) كَرِيمَةٍ	فِي قَوْمِهَا وَالْفَحْلُ فَحْلٌ مُغْرِقٌ
مَا كَانَ ضَرْكَ لَوْ مَنَّتْ وَرَبَّمَا	مَنْ الْفَتَى وَهُوَ الْمَغِيظُ الْمُخْنِقُ
فَالنَّضْرُ أَقْرَبُ مَنْ أَسْرَتْ قَرَابَةٌ	وَأَحَقُّهُمْ إِنْ كَانَ عِشْقٌ يُغَيِّقُ

(١) هو زميل بن أبرد الفزاري.

(٢) الأثيل: موضع قرب المدينة بين بدر ووادي الصفراء.

(٣) يقال للرجل يقدم فيضرب عنقه قتل صبرًا، يعني أنه أمسك على الموت، وكذلك كل مقتول في غير معركة ولا حرب ولا خطأ فإنه مقتول صبرًا.

(٤) وقتيلة: هي بنت النصر لا أخته.

(٥) النجائب الإبل الكريمة وتحقق: تسرع.

(٦) الواكف السائل.

(٧) الصنء: النسل.

ظَلَّتْ سُيُوفُ بَنِي أَبِيهِ تَنْوُشُهُ^(١) اللَّهُ أَرْحَامُ هُنَاكَ تَشَقُّقُ
صَبْرًا يُقَادُ إِلَى الْمَنِيَّةِ مُتَعَبًا رَسَفَ الْمُقَيَّدُ وَهُوَ عَانٍ مُوْتَقُ^(٢)
قال ابن هشام: قال النبي ﷺ لما بلغه هذا الشعر: لو بلغني قبل قتله
ما قتلتُه.

* * *

قال الأصمعي: نظر عمر بن الخطاب إلى الخنساء وبها ندوب في
وجْهها، فقال: ما هذه الندوب يا خنساء؟ قالت: من طول البكاء على
أخوتي؛ قال لها: أخواك في النار؛ قالت: ذلك أطول لحزني عليهما، إني
كنتُ أشفق عليهما من النار، وأنا اليوم أبكي لهما من النار، وأنشدت:
وقائلة والنَّعْشُ قد فاتَ خَطْوَهَا لِتُذْرِكِه: يَا لَهْفَ نَفْسِي عَلَى صَخْرٍ
أَلَا تَكِلْتُ أُمَّ الَّذِينَ غَدَوْا بِهِ إِلَى الْقَبْرِ مَاذَا يَحْمِلُونَ إِلَى الْقَبْرِ

* * *

دخلت الخنساء على عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها وعليها صِدار
من شعر قد استشعرته إلى جلديها، فقالت لها: ما هذا يا خنساء؟ فوالله لقد
توفي رسول الله ﷺ فما لبسته؛ قالت: إنَّ له معنى دَعَانِي إِلَى لِبَاسِهِ، وَذَلِكَ
أَنَّ أَبِي زَوَّجَنِي سَيِّدَ قَوْمِهِ، وَكَانَ رَجُلًا مِثْلًا فَأَسْرَفَ فِي مَالِهِ حَتَّى أَتَفَدَهُ،
ثُمَّ رَجَعَ فِي مَالِي فَأَتَفَدَهُ أَيْضًا، ثُمَّ أَلْتَفْتُ إِلَيَّ فَقَالَ: إِلَى أَيْنَ يَا خُنْسَاءُ؟
قُلْتُ: إِلَى أَخِي صَخْرٍ. قَالَتْ: فَأَتَيْنَاهُ فَقَسَّمْ، مَالَهُ شَطْرَيْنِ، ثُمَّ خَيْرَنَا فِي
أَحْسَنِ الشَّطْرَيْنِ، فَرَجَعْنَا مِنْ عِنْدِهِ، فَلَمْ يَزَلْ زَوْجِي حَتَّى أَذْهَبَ جَمِيعَهُ.

(١) تنوشه: تتناوبه.

(٢) رسف المقيد: مشيه. والعاني: الأسير.

ثم آلتفت إليّ، فقال لي: إلى أين يا خنساء؟ قلت: إلى أخي صخر.
 قالت: فرحنا إليه، ثم قسم ماله شطرين، وخيرنا في أفضل الشطرين.
 فقالت له زوجته: أما ترضى أن تشاطرهم مالك حتى تحيّرهم بين
 الشطرين؟ فقال:

والله لا أمتحها شزارها فلو هلكت قدّدت خمارها
 واتخذت من شعر صدارها وهي حصان قد كفّني عارها

* * *

وقالت الخنساء تزني أخاها صخر بن الشريد:

قذى بعينك أم بالعين عوار أم أقفرت إذ خلت من أهلها الدار
 كأن عيني لذكره إذا خطرت فيض يسيل على الخدين مزار
 فالعين تبكي على صخر وحق لها ودونه من جديد الأرض أستاذ
 بكاء والهة ضلت أليفتها لها حنينان إصغار وإكبار^(١)
 تزعى إذا نسيث حتى إذا ذكرت وإنما هي إقبال وإدبار
 وإن صخرًا لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار
 حامى الحقيقة محمود الخليفة مهدي الطريقة نفاع وضار

* * *

وقالت أيضًا:

أعيني جودًا ولا تجمدا ألا تبكيان لصخر الندى
 ألا تبكيان الجريء الجواد ألا تبكيان الفتى السيدا
 طويل النجاد رفيع العما د ساد عشيرته أمردا

(١) إصغارها. حينها إذا حمضته. وإكبارها حينها إذا رفعت

يُحَمِّلُهُ الْقَوْمُ مَا غَالَهُمْ وَإِنْ كَانَ أَصْغَرَهُمْ مَوْلِدًا
جَمُوعُ الضُّيُوفِ إِلَى بَابِهِ يَرَى أَفْضَلَ الْكَسْبِ أَنْ يُحْمَدًا

* * *

وَقَالَتْ أخت الوليد بن طريف ترثي أخاها الوليد بن طريف:
أَيَا شَجَرَ الْخَابُورِ مَا لَكَ مُورِقًا كَأَنَّكَ لَمْ تَجْزَعْ عَلَى ابْنِ طَرِيفٍ
فَتَى لَا يُرِيدُ الْعِزَّ إِلَّا مِنَ التُّقَى وَلَا الْمَالَ إِلَّا مِنْ قَنَا وَسُيُوفٍ
وَلَا الدُّخْرَ إِلَّا كُلَّ جَرْدَاءٍ صِلْدِمٍ^(١) وَكُلَّ رَقِيقِ الشَّفَرَتَيْنِ حَلِيفٍ
فَقَدْنَاهُ فَقْدَانِ الرَّبِيعِ فَلَيْتَنَاهُ فَدَيْتَنَاهُ مِنْ سَادَاتِنَا بِأُلُوفٍ
خَفِيفٍ عَلَى ظَهْرِ الْجَوَادِ إِذَا غَدَا وَلَيْسَ عَلَى أَعْدَائِهِ بِخَفِيفٍ
عَلَيْكَ سَلَامٌ اللَّهُ وَفَقَا فَإِنِّي أَرَى الْمَوْتَ وَقَاعًا بِكُلِّ شَرِيفٍ

* * *

وَقَالَ أَبُو الْعَتَاهِيَةِ يَرْثِي أَخَاهُ:
أَخْ طَالَمَا سَرَنِي ذِكْرُهُ فَقَدْ صِرْتُ أَشْجَى إِلَى ذِكْرِهِ
وَقَدْ كُنْتُ أَغْدُو إِلَى قَصْرِهِ فَقَدْ صِرْتُ أَغْدُو إِلَى قَبْرِهِ
وَكُنْتُ أُرَانِي غَنِيًّا بِهِ عَنْ النَّاسِ لَوْ مَدَّ فِي عُمْرِهِ
وَكُنْتُ إِذَا جِئْتُهُ زَائِرًا فَأَمْرِي يَجُوزُ عَلَى أَمْرِهِ

* * *

وَقَالَ كَعْبُ يَرْثِي أَخَاهُ أَبَا الْمَغْوَارِ^(٢):
تَقُولُ سُلَيْمَى مَا لِجِسْمِكَ شَاحِبًا كَأَنَّكَ يَخْمِيكَ الطَّعَامُ طَبِيبُ
فَقُلْتُ شُجُونٌ مِنْ خُطُوبٍ تَتَابَعَتْ عَلَيَّ كِبَارُ وَالزَّمَانُ يَرِيبُ

(١) الجرداء: القصيرة الشعر. والصلدم: الشديدة الحافر.

(٢) اسم أبي المغوار على الأصح هرم، وقيل شبيب.

لَعَمْرِي لئن كانت أصابث مَنِيَّةً
فإنِّي لبأَكْبِه وإنِّي لصَادِقُ
أخي ما أخي لا فاحشٌ عند بَيْتِهِ
أخٌ كان يَكْفِينِي وكان يُعِينِي
هو العَسَلُ المَازِي لِينًا وشِيمَةً
هَوَتْ أُمُّهُ^(٣) ما يَبْعَثُ الصُّبْحُ غَاذِيًا
كعَالِيَةِ الرُّمَحِ الرُّدَيْنِي لم يَكُنْ
وَدَاعٌ دَعَا يَا مَنْ يُجِيبُ إِلَى الدَّاءِ
فَقُلْتُ أَدْعُ أُخْرَى وارْفَعْ الصَّوْتُ ثَانِيًا
يُجِيبُكَ كَمَا قَدْ كَانَ يَفْعَلُ إِنَّهُ
وَحَدَّثَمَانِي أَنَّمَا المَوْتُ بِالْقُرَى
فَلَوْ كَانَتْ المَوْتَى تُبَاعُ اشْتَرَيْتُهُ
بِعَيْنِي أَوْ يُمْنَى يَدَيَّ وَخِلْتُنِي
لَقَدْ أَفْسَدَ المَوْتُ الحَيَاةَ وَقَدْ أَتَى
أَتَى دُونَ حُلُوِّ العَيْشِ حَتَّى أَمَرَهُ
فَوَاللَّهِ لَا أَنْسَاهُ مَا دَرَّ شَارِقُ
فَإِنْ تَكُنْ الأَيَّامُ أَحْسَنَ مَرَّةً

أخي فَاَلْمَنَايَا لِلرُّجَالِ شَعُوبُ^(١)
عليه وبعضُ القائلين كَذُوبُ
وَلَا وَرَعٌ عِنْدَ اللِّقَاءِ هَيُوبُ
على نَائِبَاتِ الدَّهْرِ حِينَ تَتُوبُ
وَلَيْتَ إِذَا لَاقَى الرُّجَالُ قَطُوبُ^(٢)
وماذَا يَرُدُّ اللَّيْلُ حِينَ يَتُوبُ
إِذَا أَبْتَدَرَ الخَيْلَ الرُّجَالُ يَخِيبُ
فَلَمْ يَسْتَجِبْهُ عِنْدَ ذَاكَ مُجِيبُ
لَعَلَّ أَبَا المَغْوَارِ مِنْكَ قَرِيبُ
بَأَمْثَالِهَا رَحْبُ الذَّرَاعِ أَرِيبُ
فَكَيْفَ وَهَاتِي هَضْبَةً وَكُثِيبُ
بِمَا لَمْ تَكُنْ عَنْهُ النُّفُوسُ تَطِيبُ
أَنَا الغَائِمُ الجَذْلَانُ حِينَ يَتُوبُ
على يَوْمِهِ عِلْقُ^(٤) إِلَيَّ حَبِيبُ
قُطُوبُ على آثَارِهِنَّ نُكُوبُ^(٥)
وما اهْتَزَّ فِي فَرْعِ الأَرَاكِ قَضِيبُ^(٦)
إِلَيَّ لَقَدْ عَادَتْ لَهْنُ دُئُوبُ

(١) شعوب. أي مفرقة.

(٢) المازي: الأبيض، وهو أجود العسل. وقطوب: عابس.

(٣) هوت أمه: دعاء عليه، ومعناه التعجب. ويريد هنا استعظام الحزن عليه.

(٤) العلق. النفس.

(٥) نكوب: مصائب.

(٦) ذر شارق: أشرقت شمس. الأراك: نوع من الشجر.

الباب الخامس:

من الإخوانيّات

الفصل الأول: من إخوانيَّات عبد الحميد الكاتب

هو عبد الحميد بن يحيى بن سعد العامري (٠٠٠ - ١٣٢هـ / ٧٥٠م). عالم بالأدب، من أئمة الكتاب. يُضرب به المثل في البلاغة. له رسائل تقع في نحو ألف ورقة، طُبِع بعضها. وهو أوّل من أطال الرسائل، واستعمل التحميدات في فصول الكتب.

* * *

من كتاب عبد الحميد الكاتب إلى الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد، حفظكم الله يا أهل صناعة الكتابة، وحاطكم ووفّقكم، وأرشدكم، فإنّ الله، عزّ وجلّ جعل الناس بعد الأنبياء والمرسلين، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ومن بعد الملوك المكرّمين، أصنافاً، وإن كانوا في الحقيقة سواءً، وصرّفهم في صنوف الصناعات، وضروب المحاولات، إلى أسباب معاشهم وأبواب أرزاقهم. فجعلكم معشر الكتاب في أشرف الجهات، أهل الأدب والمروءات والعلم والرزانة، بكم تنتظم للخلافة محاسنها، وتستقيم أمورُها، وبنصائحكم يصلح الله للخلق سلطانهم، وتعمّر بلدانهم. لا يستغني الملك عنكم، ولا يوجد كافٍ إلا منكم، فموقعكم من الملوك موقع أسماعهم التي بها يسمعون، وأبصارهم التي بها يبصرون، وألسنتهم التي بها ينطقون، وأيديهم التي بها يبطشون، فأمتعكم

الله بما خصَّكم من فضلِ صناعتكم، ولا نزع عنكم ما أضفاه من النعمة عليكم، وليس أحد من أهل الصناعات كلها أحوج إلى اجتماع خلال الخير المحمود، وخصال الفضل المذكورة المعدودة منكم. أيها الكتاب، إذا كنتم على ما يأتي في هذا الكتاب من صفتكم، فإن الكاتب يحتاج من نفسه، ويحتاج منه صاحبه، الذي يثق به في مهمات أموره، أن يكون حليماً في موضع الحلم، فهِمّاً في موضع الفهم، مقدّماً في موضع الإقدام، محجّماً في موضع الإحجام، مؤثراً للعفاف والعدل والإنصاف، كتوماً للأسرار، وفيّاً عند الشدائد، عالماً بما يأتي من النوازل، يضع الأمور مواضعها، والطوارق في أماكنها. قد نظر في كلّ فنّ من فنون العلم، فأحكمه، وإن لم يُحكمه أخذ منه بمقدار ما يكتفي به. يعرف بغريزة عقله، وحسن أدبه، وفضل تجربته، ما يردّ عليه قبل وروده؛ وعاقبة ما يصدر عنه قبل صدوره، فيعدّ لكلّ أمر عدته وعتاده، ويهيئ لكلّ وجه هيئته وعدته، فتنافسوا يا معشر الكتاب في صنوف الآداب، وتفقهوا في الدين، وابدأوا بعلم كتاب الله، عزّ وجلّ، والفرائض، ثم العربية فإنها ثقافة ألسنتكم، ثم أجيدوا الخطّ فإنه حلية كتبكم، وارووا الأشعار، واعرفوا غريبها، ومعانيها، وأيام العرب، والعجم وأحاديثها وسيرها، فإنّ ذلك مُعين لكم على ما تسمو إليه هممكم. ولا تُضيعوا النظر في الحساب، فإنّه قوام كتاب الخراج، وارغبوا بأنفسكم عن المطاعم سنيّها ودنيّها^(١)، وسفساف الأمور ومحاقرها، فإنها مذلة للرقاب، ومفسدة للكتاب.

* * *

(١) أي: العالي منها والرحيص

الفصل الثاني: من إخوانيات البحتري

هو الوليد بن عبيد بن يحيى الطائي (٢٠٦ - ٢٨٤هـ = ٨٢١ - ٨٩٨م). شاعر كبير، يقال لشعره «سلاسل الذهب»، وهو أحد الثلاثة الذين كانوا أشعر أبناء عصرهم: المتنبي، وأبو تمام، والبحتري. قيل لأبي العلاء المعري: أي الثلاثة أشعر؟ فقال: المتنبي وأبو تمام حكيمان، وإنما الشاعر البحتري. ولد بمنبج بين حلب والفرات، وتوفي فيها. له ديوان شعر، وكتاب «الحماسة».

* * *

كتب إلى صديق له: وكان أتاه فلم يصل إليه، وكان لا يمتنع منه للحال بينهما:

«أستمعُ اللهَ ببقائك، وأسأله العونَ على جفائك. لولا أن الكلام يطول ويكثر لكان الإكثار في الشكوى مُمكنًا، لكنَّا نقتصر على القليل منه، وقد أهديتُ إليك أبياتَ مُعَاتِبَةٍ أتت على ما أردنا من الكلام، فتدبرها وتفهمها، وعُدْ إلى ما لم نزلْ نعرفك به من التفضل، ولا تدعوتك زيادةُ النعمة من الله عليك إلى الاستخفاف بإخوانك. ولولا أن تترك العتاب في موضع المعاتبة جفاءً وداعيةً إلى القطيعة، لكان أحبَّ الأمرين إليَّ ترك العتاب لِثقله على المُذنبين. أرشدك الله لأفضل الأمور. ووفقك لمحبته!» والأبيات:

يا «فَضْلُ» فِيمَ الصُّدُودُ والغَضَبُ؟
 أم فِيمَ هَجْرَانُ هَائِمٍ بِكُمْ
 هذا لِذَنْبٍ، فَلَنْ أَعُودَ لَهُ
 أم دَبَّ لِي كَاشِحٌ فَأُضْرَمَ لِي
 يا «فَضْلُ» أَشْمَتَ بِي الْعُدَاةُ، وَقَدْ
 صَدُّكَ عَنِّي وَجَفَوَةُ حَدَّثَتْ
 كَانَ صَدِيقًا، فَصَارَ مَعْرِفَةً
 إِنِّي لَبَاكِ عَلَيْهِ مَا طَرَقَتْ
 بُكَاءَ مَحْزُونَةٍ عَلَى وَلَدٍ
 أَتَدُبُّ حَيًّا، مَاتَتْ مَوَدَّتُهُ
 بَاخَ سَنَا نَارٍ وَدَّهِ فَحَبَا،
 قَدْ كُنْتُ آتِيهِ لِلسَّلَامِ فَلَا
 قَدْ كَانَ يُبْدِي وَدًّا وَتَكْرِمَةً
 إِذْ أَنَا فِي عُنْفَوَانٍ مَنَزَلَةٍ
 تُظِلُّنِي لِلْمُلُوكِ أَشْمِيَّةُ
 فِي خَفْضِ عَيْشٍ وَظِلِّ مَمْلَكَةٍ

أَمْ فِيمَ حَبْلُ الصَّفَاءِ مُنْقَضِبُ؟
 تُقْصُونَهُ دَائِبًا وَيَقْتَرِبُ؟!
 مَا أَغَقَبْتَ رِيحَ شَمَالٍ نُكْبُ^(١)
 عِنْدَكَ نَارًا بِالْإِفْكِ تَلْتَهِبُ؟
 أَعْطَيْتَهُمْ فِي فَوْقِ مَا طَلَبُوا
 مِنْ صَاحِبٍ غَالٍ وَدَّهِ الْعَطَبُ
 بَعْدُ؛ كَذَاكَ الْقُلُوبُ تَنْقَلِبُ
 عَيْنٌ، وَمَا فَاضَ دَمْعُهَا السَّرِبُ
 لَمْ يُغْنِ عَنْهَا الْإِشْفَاقُ وَالْحَدَبُ^(٢)
 طَوْرًا، وَطَوْرًا عَلَيْهِ أَنْتَجِبُ
 وَكَانَ حِينًا لِنَارِهِ لَهَبُ^(٣)
 تَسْتَرُنِي عَنْ لِقَائِهِ الْحُجُبُ
 إِذْ مَشَرَعُ الْوَدِّ بَيْنَنَا عُقْبُ^(٤)
 تُكْرِمُنِي مَرَّةً لَهَا «الْعَرَبُ»^(٥)
 أَمْطَارُهُنَّ: أَلَلَّجَيْنُ وَالذَّهَبُ^(٦)
 قَدْ كَانَ يَضْفُو لَنَا بِهَا الْحَلَبُ^(٧)

(١) النُّكْبُ: جمع نكباء، وهي الرياح التي تقع بين ريحين كالصُّبَا والشَّمال.

(٢) الْحَدَبُ: العطف.

(٣) بَاخٌ: خمد.

(٤) الْمَشَرَعُ: مورد الشرب. عُقْبُ: ماوية، جمع عُقْبَةٌ وهي التوبة، والبدل.

(٥) الْعُنْفَوَانُ: أول الشيء.

(٦) أَشْمِيَّةٌ: جمع سماء. اللجج. الفصة.

(٧) الْحَلَبُ: يقصد الشراب.

حتى إذا ما الزمانُ أغوصَ بي
أُغلقَ دُونِي بابُ الصفاءِ كأنَّ
يا صاحبًا لم أخفَ تَغْيِرَهُ
ما لي - وكُنْتَ الصَّدِيقَ أَمْلُهُ
آتِيكَ سَعِيًا مُعَفِّرًا قَدَمِي
عَنِّي، كَأَنِّي إِذَا أَتَيْتُكُمْ
ثَمَّةَ حُجَّابِكَ الْجُفَاءِ إِذَا أُسْتَأْ
ليس جَزَاءُ الْقَوْلِ فِيكَ بِمَا
هَذَا لَعَمْرِي! وَالْحَرُّ لَا يَرْتَضِي أَلْ
يا «فَضْلُ» لَا أَحْمِلُ الْجَفَاءَ وَلِي
هَيْهَاتَ! هَيْهَاتَ! لَا أَهْوَنُ وَلِي
تَمْنَعُنِي نَبْعَةً مُغْرَسَةً
عَنْ حَمَلٍ مَا فِي أَحْتِمَالِهِ ضَعْفٌ

والدهرُ فِينَا لَصَرْفِهِ نُوبٌ^(١)
لَمْ يَكُ بَيْنِي وَبَيْنَهُ سَبَبٌ
مَا هَكَذَا فِعْلٌ مَنْ لَهُ أَدَبٌ!
وَأَزْتَجِي نَفْعَهُ وَأَزْتَقِبُ -
يَخْفِزُنِي الشَّوْقُ ثُمَّ تَخْتَجِبُ
مُسْلَمًا شَارَفَ بِهَا جَرَبٌ!^(٢)
ذَنْتُ هَرُؤًا عَلَيَّ أَوْ قَطَبُؤًا^(٣)
تَقْصُرُ عَنْهُ الصُّفَاتُ وَالْخُطْبُ
هُونٌ، وَإِنْ قَلَّ عِنْدَهُ النَّشَبُ^(٤)
فِي الْأَرْضِ مَنْدُوحَةٌ وَمُضْطَرِبٌ!^(٥)
عَمَّنْ جَفَانِي مَنَادِحُ رُحْبًا!^(٦)
لَا قَادِحُ شَانِهَا وَلَا قَلْبُ^(٧)
حَتَّى يُوَارِي عِظَامِي التُّرْبُ

(١) أغوص بي: أنزل عليّ من النوائب ما يعسر الخلاص منه.

(٢) الشارف: الناقة المسنة الهرمة.

(٣) هرّ عليه: صوّت.

(٤) الهون: الخزي. النشب: العقار والمال الأصيل.

(٥) المندوحة: السعة والفسحة.

(٦) المنادح: الأراضي الواسعة البعيدة.

(٧) النبعة: واحدة شجر النبع وتستعمل للقوس، حيث يتخذ من هذا الشجر.

القادح: الأكال يقع في الشجر وهو التآكل؛ والصدع في العود.

القلب (بالتحريك): مأخوذ من القلاب (بضم القاف) وهو داء يأخذ الإبل في رؤوسهم فيقلبها إلى فوق.

يا «فَضْلُ» لي مِقُولٌ أَقُولُ بِهِ
تَحْجُزُنِي عَنْكَ حُرْمَةٌ قَدَمْتُ
كَمْ مِنْ عَدُوٍّ أَرَعَمْتُ مَعْطِسُهُ
عَلَى رَجَالٍ إِذَا هُمْ قَدَحُوا
إِنْ حُصِّلَ النَّاسُ فِي فَعَالِهِمْ
أَجَعَلَكَ الْفَذُّ مِنْ قِدَاحِهِمْ
ثُمَّ أَرَانِي لَدَيْكَ مُطَرِّحًا

عَضْبٌ - إِذَا مَا هَزَزْتُهُ - ذَرِبُ^(١)
وَحُلَّةٌ مَا يَشِينُهَا كَذِبُ^(٢)
فِيكَ، وَكَمْ فِيكَ هَزَنِي الْغَضْبُ!^(٣)
فِيكَ فَبَيْنِي وَبَيْنَهُمْ نَحْبُ^(٤)
كَنتَ الَّذِي أَصْطَفِي وَأَتَّخِبُ^(٥)
إِذَا أُجِيلَتْ، وَإِنْ هُمْ غَضِبُوا^(٦)
أُجْفَى عَلَى حُرْمَتِي وَأُجْتَنَّبُ!^(٧)

* * *

وكتب إلى المُبرِّد يدعوهُ:

يَوْمٌ سَبَّتٍ، وَعِنْدَنَا مَا كَفَى الْحَزَّ
وَلَنَا مَجْلِسٌ عَلَى النَّهْرِ فَيَا
وَدَوَامُ الْمُدَامِ يُدْنِيكَ مَمَّنْ
فَأَتَيْنَا يَا «مُحَمَّدُ بْنُ يَزِيدٍ»
نَطْرُدُ الْهَمَّ بِأَضْطَبَاحِ ثَلَاثٍ
إِنْ فِي الرَّاحِ رَاحَةٌ مِنْ جَوَى الْحُبِّ؛
لَا يَرُغُّكَ الْمَشْيِبُ مِنِّي فَإِنِّي

طَعَامٌ، وَالْوَزْدُ مِمَّا قَرِيبُ
حُ فَسِيحُ تَرْتَاخٍ فِيهِ الْقُلُوبُ
كُنْتُ تَهْوَى وَإِنْ جَفَاكَ الْحَبِيبُ
فِي أَسْتِتَارٍ كِي لَا يَرَاكَ الرَّقِيبُ
مُتْرَعَاتٍ تُنْقَى بِهِنَّ الْكُرُوبُ
وَقَلْبِي إِلَى الْأَدِيبِ طَرُوبُ
مَا ثَنَانِي عَنِ التَّصَابِي الْمَشْيِبُ!

* * *

(١) المِقُولُ: اللسان. العَضْبُ: القاطع؛ شبهه بالسيف. الذَرِبُ: الحاذ.

(٢) الحُلَّةُ: الصداقة لا خلل فيها.

(٣) المعطس: الأنف.

(٤) النحب: الخطر العظيم والأجل والشدة والمراهنه.

(٥) التحصيل: التمييز.

(٦) الفَذُّ: أول سهام الميسر.

(٧) القِدَحُ: السهم من سهام الميسر وكان قطعة من الخشب يميز كلُّ منها عن غيره.

وكتب إلى صديق له بحلب:

«أبا الطيب! لا سمعتُ بحادثٍ
لشكوايَ إنِّي للذي قد أظلّني
فوالله ما أختارُ من بعدك الغنى
إذا كنتُ من خوفِ الفراقِ مدللها
فكيف تراني إن ترحلت صانعاً
أقيم وحيداً فيه أندبُ رُبعة
أضبر؟ لا والله ما لي تجلّدُ
فسيانٍ عندي رِختي عنك طائعاً

عليك، ولا زلتُ المُجيرَ على الدهرِ!
من البينِ أخشى أن أموتَ ولا أذري
وقربك أشهى منه عندي مع الفقرِ
ودارك مني يا ابنَ موسى على فترِ
إلى بلدٍ، أقوتُ معالمةً، قنر^(١)
وآسى على أيامنا الجدِّ والغرِّ
فأسلو، ولا عن حُسنِ وجهك من صبرِ
وأنتَ مقيمٌ، وانتقالي إلى قبري

* * *

قال أبو الغوث يحيى بن البُخترى: دَخَلَ أَبِي إلى مجلس فيه أبو هِفَّان
المهزَمي، وهو يُنشد:

تَلَبَّسْتُ لِلْحَرْبِ أَثْوَابَهَا وَقُلْتُ: أَنَا الرَّجُلُ الْبُخْتَرِي!
فقال أبو هِفَّان مُجيباً له:

فَلَمَّا رَأَى الْخَيْلَ قَدْ أَقْبَلَتْ وَجَدْنَاهُ فِي سَرْجِهِ قَدْ خَرِي

* * *

وقال يعتذر إلى صديق له من تخلفه عن دعوته لأجل المطر:

مِنْ قَضَاءِ الْحُقُوقِ فِي بَعْضِ مَا عَا رَضَ دُونَ الْحُقُوقِ إِلَّا تُقْضَى
حَكَمْتُ هَذِهِ السَّمَاءَ بِأَنْ نُحْ بَسَ عَنْ وَاجِبِ الصَّدِيقِ وَيَرْضَى
دِيمَ أَقْبَلْتُ تُصَحِّحُ عُذْرًا لِأَخِي جَفْوَةً وَتُسْقِطُ فَرْضًا

(١) أقوت معالمة: خلت من ساكنيها.

أَبْعَدْتَنِي مِنْ أَنْ أَجِيئَكَ سَعِيًّا وَبُكَرْهِي إِلَّا أَجِيئَكَ رَكْضًا

* * *

وقال يُعَاتِبُ صَدِيقًا لَهُ :

إِذَا جَمَعَ أَمْرُؤُ حَزْمًا وَعَقْلًا إِذَا ذُو الْعَقْلِ أَغْطَى التُّضَحَّ مِنْهُ
فَحَقُّ لَهُ بِذَلِكَ أَنْ يُطَاعَا عَدِيمَ الْعَقْلِ ضَيَّعَهُ فَضَاعَا
وَكَيْفَ بِصَاحِبِ إِنْ أَدُنُّ شَبْرًا يَزِدُّنِي فِي مُبَاعَدَةٍ ذِرَاعَا
أَبَتْ نَفْسِي لَهُ إِلَّا وَصَالًا وَتَأْبَى نَفْسُهُ إِلَّا أَنْقِطَاعَا
كِلَانًا جَاهِدْ: أَدْنُو وَيَتَأَيَّ؛ كَذَلِكَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا اسْتَطَاعَا!

* * *

وكتب إليه مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ الْقُمِّيُّ بَيْتَ شَعْرِ وَهُوَ:

هَجَرْتُ كَأَنَّ الْوَضِلَ أَغْقَبَ وَخَشَّةٌ وَلَمْ أَرَ وَضِلًا قَبْلَهُ يُغَقِّبُ الْهَجْرَا!

فَأَجَابَهُ الْبَحْثَرِيُّ:

فَتَى مَذْجِجٍ غَفْرًا؛ فَتَى مَذْجِجٍ غَفْرًا
وَمَنْ يَهَبِ الثَّيْلَ الَّذِي سَمَحَتْ بِهِ فَإِنْ قُلْتَ بِي كِبَرٌ، فَمِثْلَ الَّذِي أَرَى
مَوَاهِبُ لِي مِنْهَا الْغِنَى فَمَتَى أَلْتَقَى تُضَافُ إِلَى مَجْدِي، وَتَجْرِي إِلَى يَدِي
أَتَانِي قَرِيضٌ مِنْكَ يَخْدُوهُ نَائِلٌ وَأَكْسَبْتَنِي شُغْلًا عَنِ الْوَضِلِ شَاغِلًا
فَإِنْ كُنْتَ مَشْغُوفًا بِقُرْبِي أَنْسَا لَيْتَ كَانَ إِسْعَافِي بِهِ مِنْكَ قَبْلَهَا
لِمُعْتَذِرٍ جَاءَتْ إِسَاءَتُهُ تَشْرَى! يَدَاكَ بِلَا مَنْ فَلَئِنْ يَمْنَعِ الْعُذْرَا
عَلَى النَّاسِ مِنْ نُعْمَاكَ يَمْلَأُونِي كِبَرًا بِسَاحَتِهَا حَمْدٌ فَلِي حَمْدُهَا طُرَا
فَأَمْلِكُهَا مَالًا، وَأَمْلِكُهَا فَخْرًا فَأَنْطَقْنِي جُودًا، وَأَفْحَمْنِي شِعْرًا
تُعَاتِبُنِي فِيهِ، وَتَعْتَدُهُ هَجْرًا بِشَخْصِي فَلِمَ خَوَّلْتَنِي ذَلِكَ الْبَذْرَا
وَفَاءٌ لَقَدْ كَانَ أَنْفَرَادِي بِهِ غَدْرَا

وما هُوَ إِلَّا دُرَّةٌ لَمْ أَجِدْ لَهَا سِوَى جُودِكَ الْأَمْسِيِّ إِذْ بَرَزْتَ بَحْرًا
حَمَلْتَ عَلَيْهِ فِي سَبِيلِ فُتُوَّةٍ هِيَ الثَّغْرِ خَلْفَ الْمَجْدِ بِلِ تَقْضِلُ الثَّغْرَا
فَإِنْ أَنَا لَمْ أَشْكُرْكَ نِعْمَاكَ جَاهِدَا فَلَا نِلْتُ نِعْمَى بَعْدَهَا تُوجِبُ الشُّكْرَا

* * *

الفصل الثالث: من إخوانيات أبي فراس الحمداني

هو الحارث بن سعيد بن حمدان التغلبي الربيعي (٣٢٠ - ٣٥٧ هـ = ٩٣٢ - ٩٦٨ م)، ابن عم سيف الدولة. كان سيف الدولة يحبه ويجهله ويستصحبه في غزواته ويقدمه على سائر قومه، وقلده منبجاً وحران وأعمالها. جرح في معركة مع الروم، فأسروه (سنة ٣٥١ هـ)، فعُرف شعره في الأسر بالروميات. له «ديوان شعر».

* * *

كتب بالقصيدة التالية إلى سيف الدولة من الإِسار، وقد بلغه عنه ما أنكره:

أما لجميل عندك ثواب؟ ولا لِمُسيءٍ عندك مَتَابُ
لقد ضلُّ مَنْ تحوي هواه خريدةً وقد ذلَّ مَنْ تقضي عليه كعابُ
ولكنني، والحمدُ لله، حازمٌ أعزُّ إذا ذلَّتْ لهن رِقَابُ
ولا تملكُ الحسناءُ قلبي كلهُ وإن شملتْها رِقَّةٌ وشَبَابُ
وأجري ولا أعطي الهوى فضلَ مفودي وأهفو ولا يخفى عليَّ صوابُ
إذا الخِلُّ لم يهْجُرَكَ إلا مَلالةً فليسَ له إلا الفراق عِتَابُ
إذا لم أجِدْ في بلدةٍ ما أريدُه فعندي لأخرى عَزْمَةٌ وركابُ
وليس فراقٌ ما استطعتُ، فإن يكنْ فراقٌ على حالٍ، فليسَ إِيَابُ
صَبورٌ، ولو لم تَبَقْ مني بقيَّةُ قَوْلٍ، ولو أن السيوفَ جَوَابُ

وَقُورَ، وَأَهْوَالُ الزَّمَانِ بَنُوشُنِي
وَالْحَظُّ أَحْوَالُ الزَّمَانِ بِمُقْلَةٍ
بِمَنْ يَثِقُ الْإِنْسَانُ فِيمَا يَنْوِبُهُ
وَقَدْ صَارَ هَذَا النَّاسُ إِلَّا أَقْلَهُمْ
تَغَايَيْتُ عَنْ قَوْمِي، فَظَنُّوا غِبَاوَتِي
وَلَوْ عَرَفُونِي حَقَّ مَعْرِفَتِي بِهِمْ
وَمَا كُلُّ فَعَالٍ يُجَازَى بِفِعْلِهِ
وَرَبُّ كَلَامٍ مَرَّ فَوْقَ مَسَامِعِي
إِلَى اللَّهِ أَشْكُو أَنَّنَا بِمَنَازِلِ
تَمَرُّ اللَّيَالِي لَيْسَ لِلنَّفْعِ مَوْضِعٌ
وَلَا شُدُّ لِي سَرَجٌ عَلَى ظَهْرٍ سَابِحٍ
وَلَا بَرَقَتْ لِي فِي اللَّقَاءِ قَوَاطِعُ
سَتَذْكُرُ أَيَّامِي نُمِيرٌ وَعَامِرٌ
أَنَا الْجَارُ لَا زَادِي بَطِيءٌ عَلَيْهِمْ
وَلَا أَطْلُبُ الْعَوْرَاءَ^(٤) مِنْهُمْ أَصِيبُهَا
وَأَسْطُو، وَحُبِّي ثَابِتٌ فِي قُلُوبِهِمْ
بَنِي عَمَّنَا مَا يَصْنَعُ السِّيفُ فِي الْوَعَى
بَنِي عَمَّنَا لَا تُنْكِرُوا الْوَدَّ بَيْنَنَا
بَنِي عَمَّنَا، نَحْنُ السَّوَاعِدُ وَالظُّبَى

وَلِلْمَوْتِ حَوْلِي جِئْتُ وَذَهَابُ^(١)
بِهَا الصُّدُقُ صِدْقٌ، وَالْكَذَابُ كِذَابٌ
وَمَنْ أَيْنَ لِلْحَرِّ الْكَرِيمِ صِحَابُ؟
ذُتَابًا عَلَى أَجْسَادِهِمْ ثِيَابُ
بِمَفْرِقِ أَغْبَانَا حَصَى وَتُرَابُ
إِذَا عَلِمُوا أَنِّي شَهِدْتُ وَغَابُوا
وَلَا كُلُّ قَوَالٍ لَدَيَّ يُجَابُ
كَمَا طَنَّ فِي لُوحِ الْهَجِيرِ ذُبَابُ^(٢)
تَحْكُمُ فِي آسَادِهِمْ كِلَابُ
لَدَيَّ، وَلَا لِلْمُعْتَفِينَ جَنَابُ^(٣)
وَلَا ضُرِبَتْ لِي بِالْعَرَاءِ قِبَابُ
وَلَا لَمَعَتْ لِي فِي الْحُرُوبِ جِرَابُ
وَكَعْبٌ عَلَى عِلَاقَتِهَا وَكِلابُ
وَلَا دُونَ مَالِي فِي الْحَوَادِثِ بَابُ
وَلَا عَوْرَتِي لِلطَّلَابِينَ تُصَابُ
وَأَحْلُمُ عَنْ جُهَاْلِهِمْ وَأَهَابُ
إِذَا قُلٌّ مِنْهُ مَضْرَبٌ وَذُبَابُ؟
شِدَادٌ عَلَى غَيْرِ الْهَوَانِ صِلَابُ
وَيُوشِكُ يَوْمًا أَنْ يَكُونَ ضِرَابُ

(١) الأهوال: المصائب. تنوشني: تتناولني.

(٢) الهجير: شدة الحر.

(٣) المعتفون: طالبو المعروف. حناب: ناحية

(٤) العوراء: القبيحة وما يُستحى به.

وإن رجلاً ما ابتهم كابين أختهم
فَعَن أَيِّ عَذْرِ إِن دُعُوا ودُعِيْتُمْ
وما أدعي، ما يعلم الله، غيره
وأفعاله للراغبين كريمة
ولكن نبا منه بكفي صارم
وأبطأ عني والمنايا سريعة
فإن لم يكن وُدّ قديم نَعْدُهُ
فأخوِط للإسلام أن لا تُضِيعَني
ولكنني راضٍ على كلِّ حالة
وما زِلْتُ أرضى بالقليل محبةً
وأطلبُ إبقاءً على الوُدِّ أرضه
كذاك الودادُ المحض لا يُرتَجى له
وقد كنت أخشى الهجرَ والشَّمْلُ جامع
فكيفَ وفيما بيننا مُلكٌ قيصر
أمن بعدِ بذلِ النفسِ فيما تُريدُه
فلَيْتَكَ تحلو، والحياةُ مريرة
وليتَ الذي بيّني وبيّنكَ عامر
إذا صحَّ منك الوُدُّ فالمالُ هين
فيا ليتَ شُرْبِي مِن وداكَ صافيًا
حَرِيُون أن يُقْضَى لَهُم ويُهَابُوا
أَبَيْتُمْ، بني أعمامنا، وأجابوا؟
رِحَابُ «عليّ» للعُفَاة رِحَابُ^(١)
وأمواله للطالبين نِهَابُ
وأظلمَ في عينيّ منه شِهَابُ
وللموتِ ظُفْرٌ، قد أَطْلُ، ونابُ
ولا نَسَبٌ دونَ الرجالِ قُرَابُ
ولي عنكَ فيه حَوَطةٌ ومَنَابُ
ليُعلمَ أيُّ الحالتين سَرَابُ
لديكَ، وما دونَ الكثيرِ حِجَابُ
وذكرِي مَنى في غيرها وِطْلَابُ
ثوابُ، ولا يُخْشى عليه ثوابُ
وفي كلِّ يومٍ لَفْتَةٌ وِخْطَابُ
وللبحرِ حَوَلي زُخْرَةٌ وعُبابُ؟
أجابُ بمُرِّ العُثْبِ حينَ أَجابُ؟
وليتَكَ تَرْضَى، والأَنَامُ غِضَابُ
وبيني وبينَ العالمينَ خَرَابُ
وكلُّ الذي فوقَ الترابِ تُرابُ
وشُرْبِي من ماءِ الفراتِ سَرَابُ

* * *

(١) رِحَاب ج رحبة؛ الأولى بمعنى الساحة والثانية بمعنى الواسعة.

كتب أبو فراس إلى القاضي أبي الحصين معاتباً على تأخره بالكتابة إليه :

ويد يراها الدهر غير ذميمة تمحو إساءته إليّ وتغفر
أهدت إليّ مودة من صاحب تزكو المودة في ثراه وتثمر
علقت يدي منه بعلق مضنة مما يصاب على الزمان ويذخر
لكنني من بعض أمري عاتب والحرّ يحتمل الصديق، ويصبر
وإذا وجدت على الصديق شكوته سراً إليه، وفي المحافل أشكر
ما بال شعري لا يجيء جوابه سحبان عندك باقل، لا أعذر؟

* * *

وكتب أبو محمد بن أفلح إلى أبي فراس كتاباً فاستحسن نثره ونظمه .
فأجابه أبو فراس :

وافى كتابك مطوياً على نزه يقسم الحُسن بين السمع والبصر
عذوبة صدرت عن منطق جدد كالماء يخرج ينبوعاً من الحجر
ووارد مورداً أنسا يؤكده صدوره عن سليم الورد والصدر
وروضة من رياض الفكر دبجها صوب القرائح لا صوب من المطر
كأنما نثر أيدي الربيع بها بُرداً من الوشي أو ثوباً من الجبر

* * *

وكتب إلى غلاميه صافٍ ومنصور، وهو في الأسر :
يا خليلي بالشام أفيقا هل تحسان لي رفيقا رفيقا؟
كثر الغدر، والخيانة في النا س، فما إن أرى صديقاً صدوقا
قل أهل الوفاء، واتبع النا س من الغدر والجفاء طريقا

لا رعى الله، يا خليلي، دهرًا فرّقنا صروفه تفريقًا
كنت مولاكم، وما كنت إلا والدًا محسنًا، وعمًّا شفيقًا
فاذكراني، وكيف لا تذكراني كلما استخون الصديق الصدوقا
بت أبكيكم، وإنّ عجيبًا أن يبيت الأسير يبكي الطليقا

* * *

واعذر إليه أبو الفضل عن تقصير، فأجابه:
العذر منك، على الحالات، مقبول والعتب منك، على العِلّات، محمول
لولا اشتياقي لم أقلق لبعدكم ولا غدا في زماني بعدكم طول
وكلُّ مُنتظرٍ، إلّاك، مُحْتَقَرٌ وكلُّ شيءٍ، سوى لقياك، مَمْلُوءٌ

الفصل الرابع: من إخوانيات ولي الدين يكن

هو ولي الدين بن حسن سري بن ابراهيم باشا يكن (١٢٩٠ - ١٣٣٩ هـ = ١٨٧٣ - ١٩٢١ م). أديب وشاعر. تركي الأصل. ولد بالآستانة وجيء به الى القاهرة طفلاً، فتوفي أبوه. فكفله عمه علي حيدر وعلمه، فمال الى الأدب، وكتب في الصحف فابتدأت شهرته. نفاه السلطان عبد الحميد الى ولاية سيواس، فبقي فيها الى أن أعلن الدستور العثماني، فانتقل الى مصر، وعاد الى الكتابة، فنشر كتابه «المعلوم والمجهول»، وله «ديوان شعر».

* * *

رسالة عتاب من ولي الدين يكن إلى الأديبة مي:

٤ نوفمبر ١٩١٥

يا شمس الآداب في سماء الشرق:

قيل لي إنك غاضبة، فكان ما قيل كَسَهم نفذ من الكبد من غير أن يقتل فيريح. ولكن ما ذنبي الذي أستوجب به هذا العقاب؟ ناشدتك عهود الأدب. لا تغضبي. دومي على ما عودتني. إنني سأسعى بجسماني مسترضياً كما تسعى إليك روعي مراضية. وإذا لم أجد أملاً في رضاك،

نقمت على الكائنات، فنقّست عن حسراتي حتى تذوب جبالها، ويُمحى
كتاب سمائها.

المخلص

ولي الدين يكن

الفصل الخامس: من إخوانيَّات جبران خليل جبران

هو جبران بن خليل بن مخائيل بن سعد (١٣٠٠-١٣٤٩هـ. = ١٨٨٣-١٩٣١م.) من أحفاد يوسف جبران الماروني البشعلاني اللبناني. نابغة الكتاب المعاصرين في المهجر الأميركي. أصله من دمشق. نزح أحد أجداده الى بعلبك ثم إلى قرية «بشعلا» في لبنان. وانتقل جده الى قرية بشري. وفيها ولد وتعلم بيروت. وأقام أشهرًا بباريس. ورحل إلى الولايات المتحدة. وتوجه الى أميركا فأقام في نيويورك إلى أن تُوفي. ونقل رفاته الى مسقط رأسه «بشري». من مؤلفاته «الأرواح المتمردة»، و«الأجنحة المتكسرة»، و«العواصف».

* * *

١- من رسائله إلى أمين الغريب

مساء الجمعة ٥ تموز سنة ١٩٠٥

أخي أمين:

سامحني فقد أخطأت أمامك. ولكن أنت تعلم طبعًا بأنني لم أكتب إليك تلك الرسالة إلا بعد أن وصلني كتاب من نيويورك يقول بأنك ذهبت إلى كلوستر.

هذه نكتة اجتماعية - يقول الرجل ذو النظر الضئيل: «كيف أقدر أن أغفر لقريبي»، فتجيبه الحقيقة قائلة «كيف تقدر أن تستغفر من قريبك»، ولكن مَنْ مِنّا يا أمين يستطيع أن يسمع الحقيقة متكلمة قبل أن يرى الأخبار وجهًا لوجه؟ أما أنا فقد تعلمت أن لا أعزل صديقي قبل الاستقصاء والاستطلاع!!

قرأت اليوم «العناصر المتضاربة» فاستحستها. لا تبتسم يا أمين فأنا لا أستحسن كل ما يكتبه جبران لأن الأقوال والأنغام التي أسمعها في عالم أحلامي هي غير تلك الأقوال التي أراها مخطوطة على الطروس. ولكن سوف أنمو يا أمين وأصبح قادرًا على حبس بعض تلك الأنغام في ظلمة الحبر.

كان يجب أن تكون الحكاية الثالثة من الكتاب بين يديك في هذا الأسبوع ولكن صحتي في هذه الأيام عاطلة جدًا وأفكاري متضعضة جدًا، فإياك أن تحسبني من طائفة التواني والكسل.

لو كنت أعلم بأن كلمتي عن أخينا أسعد^(١) ستصير عمومية لكنت كتبت أكثر من كلمة لأن لأسعد أعمالاً شريفة حريّة بالكلام الكبير والجميل. فليعيش الفرقد الكبير طويلاً.

ما قولك، أدامَ الله فضلك، في كتابات شبل أفندي دمّوس^(٢) عن الجمعية العمومية في جريدة الجامعة الأسبوعية؟ ماذا يقول المهاجر فيما لو قام السوريون وأسسوا جمعية شبيهة «بمجلس الأمة»! أنا أعتقد أن الإصلاح

(١) هو أسعد رستم. شاعر لبناني مهجري (١٨٧٨-١٩٦٩م)

(٢) شبل دمّوس: أديب وبائ لبناني مثل منطقة القاع في المجلس اليابى دورات عدّة.

لا يكون بتأسيس الجمعيات بل هو بارتقاء الفرد. فإذا كان الفرد منحطاً فالجمعية لا تقدر أن تجعله مرتقياً، وإن كان مرتقياً لا تساعد على بث روحه في نفوس المنحطين.

سلام عليك وعلى الجميع من مريانا وأخيها أخيك.

جبران

* * *

١٢ شباط سنة ١٩٠٨

أخي أمين:

اسمع يا أمين فأخبرك عن أشياء لم يعلم بها أحد سوى شقيقتي مريانا.

اسمع وتأمل وافرح قليلاً مع جيرانك. أنا سوف أذهب إلى باريس عاصمة الفنون بعد بضعة شهور من أواخر الربيع الآتي، وسوف أبقى في باريس سنة كاملة. لهذه السنة أهمية عظيمة بين سني حياتي لأنها ستكون إن شاء الله بدء فصل جديد من رواية عمري، لأنني سوف أنضم في تلك المدينة العظيمة إلى لجنة تصويرية عظيمة، وأشتغل تحت مراقبتها، وأحصل على فائدة كبيرة من انتقاداتها وملاحظاتها في هذا الفن الجميل. وسواء حصلت على فائدة أو لم أحصل، فمجرد رجوعي إلى أميركا من باريس يجعل لرسمي شهرة ويجعل الأغنياء العميان يتهافتون عليها ليس لأنها جميلة بل لأنها من عمل رجل صرف سنة في باريس بين أعظم المصورين في أوروبا. أنا لم أحلم قط بهذه السفرة، ولا خطرت على بالي، لأن ما تستدعيه من النفقات يجعلها مستحيلة لدي، ولكن السماء

يا أمين قد رُتبت كل ذلك على غير معرفة مني، وفتحت أمامي السبيل إلى باريس. فأنا سوف أذهب وأصرف سنة كاملة على نفقة السماء نبع الخيرات.

والآن وقد سمعت حكايتي يا أمين، اعلم بأن وجودي في بوسطن لم يكن ناجماً عن محبتي لها وبغضي نيويورك، بل لأن في بوسطن ملائكة تريني المستقبل مشعشعاً وتفتح أمامي سبيل النجاح الأدبي والمادي. ولكني سواء كنت في بوسطن أو باريس أو باكين، «فالمهاجر» يبقى الفردوس الذي تسكنه نفسي والمسرح الذي يرقص عليه قلبي. وأنت تعلم يا أمين بأن وجودي في باريس سنة يجعلني أكتب عن أشياء لا يمكنني أن أتخيلها في هذه البلاد الآلية التجارية وتحت هذا الفضاء المملوء بالضجيج، ناهيك عن الدروس الاجتماعية التي أكتسبها في عاصمة عواصم الدنيا حيث عاش روسو ولامارتين وهوغو؛ وحيث يعبد الناس الفنون الجميلة مثلما يعبد الأميركيان الدولار القوي الذي علمتني الأيام أن أحترمه واعتبره كأعظم واسطة بين الإنسان وأمانيه.

وأنا سوف أحترم «المهاجر» بكل قواي في غيابك، فابعث إليه بشيء لكل عدد سوف أسكب على صفحاته المحبوبة كل ما في قلبي ونفسي ودماغي من العواطف والأميال والمبادئ ولا أطلب لقاء ذلك سوى رضاك وغيارتك عليّ وعلى مستقبلي، ولكن إن شئت أن تضيف إلى أفضالك المعنوية الكثيرة فضلاً مادياً، فأوصي إدارة «المهاجر» بكتاب «الأرواح المتمردة»، ودعها تساعدني في استثمار سهر الليالي وتهتم معي ببيع الكتاب إلى القراء والتجار في نيويورك والداخلية.

وأنت تعلم يا أمين بأنني لا أستطيع أن أجعل للكتابة غلة بدون مساعدة «المهاجر». كن براحة بال. لا تشغل أفكارك بغير الفرح بقاء الأهل ومرأى لبنان الجميل، أنت تعبت كثيرًا في الخمسة الأعوام الأخيرة فيجب أن ترتاح قليلًا، ويجب أن لا تدع الاهتمام بالغد يعانق راحتك. جريدة المهاجر تبقى عروسة الجرائد مهما تقلبت الأحوال. رسالة من أمين وقصيدة من أسعد رستم ومقالة من جبران كل أسبوع تكفي لتجعل العالم العربي فاتحًا عينيه نحو ٢١ واشنطن^(١).

مقدمتك لكتاب الأرواح المتمردة^(٢) سرّني جدًا، لأنها خالية من الكلام الشخصي، وقد بعثت يوم الاثنين بمقالة صغيرة إلى المهاجر، فهل وصلت؟ اكتب لي كلمة صغيرة جوابًا على كتابي هذا. سوف أكتب إليك. أكتب إليك أكثر من رسالة قبل سفرك. لا تدع شيئًا في العالم يقف بين قلبك والفرح بالسفر إلى لبنان. لا يمكننا أن نلتقي ونهز الأكف، ولكن سوف نلتقي بالروح والفكر، في كل يوم بل في كل ساعة. إن نواميس الزمان والمكان والمسافة لا تؤثر على الأرواح. سبعة آلاف ميل، مثل ميل واحد، وألف سنة مثل دقيقة واحدة عند الروح. مريانا^(٣) تسلم عليك وتدعو لك بالتوفيق، والله يريني وجهك بخير يا أمين. لتباركك السماء بقدر محبة أخيك.

جبران

(١) عنوان مكتب الجريدة.

(٢) الأرواح المتمردة: كتاب لجبران صدر سنة ١٩٠٨.

(٣) مريانا شقيقة جبران.

٢- من رسائله إلى سليم سركيس

نيويورك في ٦ أكتوبر سنة ١٩١٢^(١)

عزيزي سركيس أفندي:

أنا باعث إليك بحكاية أوحتها إليّ عرائس الجان لتكريم خليل أفندي^(٢) وهي كما تراها قصيرة بجانب هيبة الأمير العظيم والشاعر الكبير وطويلة بجانب مقتضبات الكتاب والشعراء الذين يميلون إلى ما قلّ ودلّ خصوصاً في الحفلات الإكرامية. ولكن ما العمل وعرائس الجان قد بعثن إلي بموضوع يستدعي قليلاً من الأسباب؟

تفضلُ بقبول شكري وامتناني لدعوتك إياي إلى الاشتراك بتكريم شاعر كبير يسكب روحه خمراً في كؤوس النهضة العربية الحاضرة، ويحرق قلبه بخوراً أمام القطرين فيجعلهما أكثر تحبباً وأشدّ علاقة. وتكرّم بقبول تحيتي المشفوعة باحترامي وإعجابي.

جبران

* * *

(١) بعث بها إلى مجلة سركيس بمناسبة الحملة التكريمية التي أقيمت لخليل مطران بالجامعة المصرية كمقدمة لكلمة «الشاعر العلبكي» وهي مشورة في كتاب «العواصف»
(٢) خليل مطران (١٨٧١-١٩٤٩م) شاعر لسانى كبير عاش في مصر، لُقّب شاعر القطرين. أشهر مؤلفاته «ديوان الخليل»

٣- من رسائله إلى أمين مشرق

نيويورك ٢٣ تشرين ثاني ١٩١٩

أخي العزيز أمين:

سلام الله عليك وبعد، فقد جاءت رسالتك اللطيفة، فشكرتُ لك غيرتك الأدبية النادرة واهتمامك بنشر كتاب «المواكب» بين أصحابك ومعارفك. تلك منّة أُنقِبلها بنفس العاطفة التي أُوحت إليك السعي في هذا السبيل، أعني تلك العاطفة التي لا توجد لها سوى الروابط المعنوية. لقد بعثت إليك اليوم حسب إشارتك بواحد وخمسين نسخة من «المواكب»، وبنسخة واحدة من «المجنون» مع الأمل بأنك ستجد في الكتابين شيئاً يروقك ويلذك. أما هذه الكتب فمرسلة إليك في ثمانية عشر بقجة مع البريد فالرجاء أن تصل إليك سالمة.

أنا بالطبع من الذين يشاطرونك الأسف على احتجاب «الفنون»، ولقد حاولت مع بعض الأصدقاء مساعدة نسيب عريضة على إحياء المجلة فلم نفلح لأسباب عديدة أهمها غلاء حاجيات الطبع والنشر، وذهاب ثقة الممولين بالمشروع، بيد أننا لم نزل متمسكين بأذيال الأمل، وما لا يتم في دهر قد يتم في دقيقة.

هذا وإنني أرجوك أن تقبل تحيتي وسلامي ومودتي والله يحفظك.

للمخلص

جبران خليل جبران

٧ تموز ١٩٣٠

أخي العزيز أمين:

سلام على روحك الطيبة الجوادة. وبعد، فقد تسلّمت هديتك - هنا في مدينة بوسطن - فمزّقت غلافاتها أمام رهط من إخوان الصفا وأخرجتها إلى نور النهار آيةً علوية تسخر بكلّ ما في هذه الحاضرة من القبعات والعمائم، بل وتضحك من خشونة التيجان في متحف الفنون الجميلة. لله درك فقد عرفت كيف أن توقفتني مفاخرًا برأس مرفوع يكاد يناطح المجرة... ولقد شعرت بحاسة أفخر من الفخر، شعرت بمجرد النظر إلى هذه التحفة أن حرارة النهار أخذت بالهبوط إلى درجة «الانتعاش» الربانية، فترنمت روعي في داخلي وتمايلت شاكرة مسبّحة.

سوف أحمل معروفك على رأسي ما بقيت حيًّا. والله يبقيك أخاً عزيزاً.

لجبران

* * *

٤ - من رسائله إلى ميخائيل نعيمة

بوسطن في ٢٤ أيار سنة ١٩٢٠

أخي ميخائيل:

سلام على روحك الطيبة وقلبك الكبير، وبعد فإن الرابطة القلمية ستعقد اجتماعاً رسمياً مساء الغد (الأربعاء)، أما أنا فلسوء حظي سأكون بعيداً عنكم. ولولا محاضرة عليّ أن ألقياها مساء الخميس رجعت إلى

نيويورك كرامة لعيني الرابطة القلمية، فإن حسبتم إلقاء المحاضرة عذراً
شرعياً شكرت لكم كرمكم والتفاتكم هذا، وإلا فإنني سأدفع الخمس
ريالات (جزاء تقدي) بكل طيبة خاطر، وحبّة مسك!.

كانت هذه المدينة في الأيام الغابرة تدعى مدينة العلوم والفنون أما
اليوم فهي مدينة التقاليد. أما نفوس سكانها فمتحجرة وأما أفكارهم فعتيقة
بالية.

والغريب يا ميخائيل أن المتحجر يتكبر ويتعجرف دائماً، والعتيق
البالي يتبجح ويتشامخ أبداً. وكم مرة جالست أحد أساتذة هارفرد وشعرت
بأنني في حضرة شيخ من مشايخ الأزهر، وكم مرة حدثت سيدة بوسطونية
وسمعت من فهمها ورقبها ما كنت أسمعه من جهالة وبسطة عجائز سوريا.
الحياة كلها واحدة يا ميخائيل، ومظاهر الحياة في قرى لبنان مثلها في
بوسطن ونيويورك وسان فرانسيسكو.

أذكر اسمي مشفوعاً بمودتي أمام إخواني العمال في الرابطة القلمية،
والله يحفظك عزيزاً لأخيك.

جبران

* * *

بوسطن مساء الأربعاء ١٩٢٠

أخي ميخائيل:

قرأت الساعة مقالتك في «العواصف» فماذا يا ترى أقول لك
يا ميخائيل؟ لقد وضعت بين عينيك وصفحات كتابي مكبرة بلورية فظهرت
أكبر مما هي حقيقة، وهذا مما يجعلني أن أخجل من نفسي. لقد ألقيت

بمقالتك مسؤولية كبيرة على عاتقي فهل أستطيع أن أقوم بها . هل أستطيع تحقيق الفكرة الأساسية في نظرياتك؟ أَتَبَيَّنُكَ منشأ هذه المقالة النفيسة وأنت تنظر إلى مستقبلي لا إلى ماضي - لأن الماضي كان خيوطاً ولم يكن نسيجاً، كان حجارة مختلفة الحجم والصورة ولم يكن قط بناء . أَتَبَيَّنُكَ تنظر إليّ بعين الأمل لا بعين النقد، فأندم على الكثير من الماضي، وفي الوقت نفسه أحلم بالمستقبل وفي نفسي حماسة جديدة، فإن كان هذا ما أردت أن تفعله بي ولي، عندما كتبت نقدك، فقد نجحت يا ميخائيل .

قد استحسنْتُ أوراق «الرابطة» إلى درجة قصوى غير أنني أرى الآية «الله كنوز تحت العرش الخ» يجب أن تكون ظاهرة بوضوح تام؛ أما نشر أسماء الموظفين والأعضاء فلا بد منه إذا كنا نريد إيجاد التأثير المعنوي المطلوب . وكلّ ناظر إلى ورقة من أوراق «الرابطة» يسأل من هم عمال الرابطة القلمية؟ ولكنني مع ذلك أفضل أن تنشر الأسماء بأصغر أحرف عربية موجودة .

بكل أسف يا ميخائيل لا أستطيع الرجوع إلى نيويورك قبل منتصف الأسبوع الآتي، فأنا مقيّد ببعض المشاكل الحيوية في هذه المدينة المكروهة ولولا هذه المشاكل، لكنت ذهبت وشقيقتي إلى البرية منذ أسبوعين، فماذا العمل؟

اذهبوا إلى ملفرد، واملأوا كؤوسكم من خمرة الروح وخمرة العنب، ولكن لا تنسوا أخاكم ومحبتكم المشتاق إليكم .

جبران

* * *

٥- رسالة من جبران إلى مارييتا جياكوبي.

الثلاثاء-تاريخ ختم البريد ٣ آب ١٩٢٦-بوسطن

عزيزتي، عزيزتي مارييتا:

أرجو أن تسامحيني، لأنني لم أكتب إليك من وقت أقرب. لم أكن في صحة جيّدة، لكنني الآن أحسن كثيراً، وكلّ شيء سيكون على ما يرام إذا استطعت أن تكوني صبورة وقتاً أطول قليلاً. ومهما يحدث ينبغي أن تكوني دائماً: «سيدتنا الصغيرة المتفهمة». رسائل أو لا رسائل، لا بدّ من أن تسمعي دائماً صوتي في ساعاتك الصامتة. ويجب أن تعرفي دائماً أنني أحبّ الطفلة في قلبي، وأني أباركها في كلّ ساعة من اليوم. إنني ذاهب إلى الريف لمدة يومين أو ثلاثة أيام، ولكنني لا أظن أن لي راحة هناك أكثر من هنا. إلا أنه سيكون أكثر اخضراراً.

وعسى النهارات والليالي تغرّد في قلبك العزيز العزيز.

أرجو منك أن تكتبي إليّ دائماً.

* * *

الفصل السادس: من إخوانيات أحمد شوقي

هو أمير الشعراء أحمد شوقي بن علي بن أحمد (١٢٨٥هـ/ ١٨٦٨م - ١٣٥١هـ/ ١٩٣٢م). مولده ووفاته في القاهرة. عاش حياته كلها للشعر يستوحيه من المشاهدات والحوادث. وعالج أكثر فنونه، فجری شعره على كل لسان. من آثاره «الشوقيات» وهو ديوان شعره، و «دول العرب»، و «مصرع كليوباتره»، و «عترة»، و «مجنون ليلي»، و «قمبیز»، وغيرها.

* * *

كتب شوقي الى صديقه إسماعيل باشا صبري يهئته بالسلامة، على أثر حادثة في القطار.

أُصِيبَ الْمَجْدُ يَوْمَ أُصِيبْتُ

أَتَتْنِي الصُّخْفُ عَنْكَ مُخْبِرَاتٍ	بِحَادِثَةٍ وَلَا كَالْحَادِثَاتِ
بَخَطِيكَ فِي الْقِطَارِ أَبَا حُسَيْنٍ	وَلَيْسَ مِنْ الْخُطُوبِ الْهَيْنَاتِ
أُصِيبَ الْمَجْدُ يَوْمَ أُصِيبْتُ فِيهِ	وَلَمْ تَخُلْ الْفَضِيلَةَ مِنْ شَكَاةٍ
وَسَاءَ النَّاسِ أَنْ كَبَّتِ الْمَعَالِي	وَأَزَعَجَهُمْ عِثَارُ الْمَكْرُمَاتِ
وَلَسْتُ بِنَاسِ الْأَدَابِ لَمَّا	تَرَاءَتْ رِيَّهَا مُتْلَهْفَاتِ

وكان الشُّعْرُ أَجْزَعَهَا فُؤَادًا وأَحْرَصَهَا لَدَيْكَ عَلَى حَيَاةٍ
هَجَرْتَ الْقَوْلَ أَيَّامًا قِصَارًا فكَاثَتْ فِتْرَةً لِلْمُعْجِزَاتِ
وإنَّ لِيَالِيَا أَمْسَكْتَ فِيهَا لِسُودٍ لِلْيَرَاعِ وَلِلدَّوَاةِ
فَقُلْ لِي عَنْ رُضُوضِكَ كَيْفَ أَمْسَتْ؟ فَقَلْبِي فِي رُضُوضِ مُؤَلِّمَاتِ
وَهَبْ لِي مِنْكَ خَطًّا أَوْ رَسُولًا يُبَلِّغُ عَنْكَ كُلَّ الطُّيَّبَاتِ

* * *

وكتب إليه يهنئه بتعيينه وكيلًا لنظارة الحَقَانِيَّةَ :

سَأَلْتُكَ بِالْوُدَادِ

سَأَلْتُكَ بِالْوُدَادِ أَبَا حُسَيْنٍ وبِالذَّمِّ السَّوَالِفِ وَالْعُهُودِ
وَحُبِّ كَامِنٍ لَكَ فِي فُؤَادِي وَآخِرَ فِي فُؤَادِكَ لِي أَكِيدُ
أَحَقُّ أَنَّ مَطْوِيَّ اللَّيَالِي سَيُنْشَرُ بَيْنَ أَحْمَدَ وَالْوَلِيدِ؟^(١)
وَأَنَّ مَنَاهِلًا كُنَّا لَدَيْهَا سَتَذْنُو لِلتَّائُسِ وَالْوُرُودِ؟
قَدُومُكَ فِي رُقِيِّكَ فِي نَصِيبِي سَعُودٌ فِي سَعُودٍ فِي سَعُودِ
وَفَذْتُ عَلَى رُبُوعِكَ غِبَّ نَائِي وَكُنْتُ الْبَذَرَ مَأْمُولَ الْوُفُودِ
لِئِنْ رَفَعُوكَ مَنَزَلَةً فَأَعْلَى لَقَدْ خُلِقَ الْأَهْلَةُ لِلصُّعُودِ
وَأُقْسِمُ مَا لَرَفَعَتِكَ انْتِهَاءً وَلَا فِيهَا احْتِمَالٌ لِلْمَزِيدِ

* * *

(١) أحمد والوليد المتنبّي والبحترّي.

وكتب الى صديقه حمزة بك فهمي يهّته برتبة المتمايز الرفيعة :

أَهْنَأُ أَخِي

قالوا: «تمايز» حمزة قلت: «التمايز» من قديم
لو لم يميزوه بها لامتاز بالخلق العظيم
رتب كرائم في العلا وجهن منك إلى كريم
فاهناً أخي بوفودها وتلق تهنئة الحميم
وازق المنازل كلها حتى تنيف على النجوم

* * *

بين أحمد شوقي وحافظ إبراهيم

بعث أحمد شوقي، وهو في منفاه في إسبانيا، إلى صديقه الشاعر
حافظ إبراهيم الأبيات الثلاثة التالية:

يا ساكني مضر إنا لا نزال على عهد الوفاء، وإن غبنا، مُقيمين
هلاً بعثتم لنا من ماء نهركم شيئاً نبّل به أخشاء صادين^(١)
كل المناهل^(٢) بعد النيل أسنة ما أبعد النيل إلا عن أمانينا

فأجابه حافظ إبراهيم على الوزن نفسه، والقافية نفسها:

عجبت للنيل يذري أن بلبله صايد، ويسقي ربا مضر ويسقيننا
والله ما طاب للأصحاب ماردة ولا أرتضوا بعدكم من عيشهم لنا
لم تنأ^(٣) عنه، وإن فارقت شاطئه وقد نأينا، وإن كنا مُقيمين

* * *

(١) الصادي: الظمان.

(٢) المناهل: موارد الماء.

(٣) لم تنأ: لم تبعد

الفصل السابع: من إخوانيّات أبي القاسم الشابيّ

هو أبو القاسم بن محمد بن أبي القاسم الشابيّ (١٣٢٤هـ/١٩٠٦م - ١٣٥٣هـ/١٩٣٤م) شاعر تونسيّ، ولد في قرية الشابيّة من ضواحي توزر (عاصمة الواحات التونسية في الجنوب)، وقرأ العربيّة بالمعهد الزيتونيّ بتونس، وتخرّج بمدرسة الحقوق التونسية، وعلت شهرته. مات شاباً بمرض الصدر، ودُفن في «روضة الشابيّ» بقريته. كان شديد الإعجاب والتأثر بأدب المهاجرة، وعلى رأسهم جبران، شديد الإخلاص في توجّهه إلى بلاده. له «ديوان شعر»، وكتاب «الخيال الشابيّ عند العرب»، و«آثار الشابيّ»، و«مذكرات».

* * *

وقد اخترنا من رسائله إلى صديقه محمد الحليويّ الرسائل التالية:

تونس في ١٣ رجب سنة ١٣٤٨^(١)

أخي الفاضل:

قد انتظرت كتابك (المطول) ولكن عبثاً كانت تمضي الساعات ثم الايام ثم الأسابيع وأخشى أن تلحق بها الشهور.

(١) ١٥ ديسمبر ١٩٢٩.

وبعد، فماذا أخبرك به من أنباء العاصمة؟ إني ليستخفني الفرح حين أعلمك أنّ العناية السماوية قد جادت علينا بمجلة أدبية ستصرف همها الى الادب والى القيام بواجبه في هاته الديار، وإني أعلم انك ستقول كلا بل هذا وهم باطل وسراب كذوب، فكثيراً ما سمعنا مثل هاته الأنباء الجميلة المستحبة فاستخفّتنا، ولكن ما لعبت بألبابنا خيالاتها حتى تكشفنا عن سراب فإذا الكل باطل... وإذا الكل قبضة من ضباب... اعلم انك ستقول هذا واكثر منه ولكن ليطمئن بالك ولتعتقد ان هذا الأمل المنشود قد أصبح حقيقة ماثلة ما بين عشية وضحاها، فقد أحرز الأخ زين العابدين على تلك المنية التي طالما صبا اليها وهي اصدار مجلة أدبية علمية. أجل أحرز على مجلة اختار لها اسم «العالم». وقد أخذ في طبع هاته المجلة وفي إعداد العدة الأدبية لها حتى تكون جاهزة كاملة آخر هذا الشهر الافرنجي وحتى تحيي الناس في رأس هاته السنة وقد أخذ مني قطعة شعرية لنشرها ضمن مجلته. ولا تظن ان تلك أباطيل، فإن كثيرا من المقالات الأدبية قد قدمت للطبع بمحضر مني بل ان بعضها قد كنت حاضراً لتصحيح مسودته المطبعية «بروفة».

ولذا فالرجاء ايها الاخ ان تبعث إليّ في أقرب وقت ممكن بنفثة من نفثات يراعك أو بحث من أبحاثك القيمة الممتعة حتى يمكن نشرها في العدد الأول من اعداد المجلة. لأنني لا يروق لي أن يؤخر مقالك شهراً آخر لأن المجلة شهرية في هذا الأوان على الأقل. لا أزيدك تأكيداً في المبادرة بتوجيه بعض أبحاثك الأدبية إليّ على جناح العجل فإنني ليلذ لي أن تطلع الأمة التونسية على ثمرات أبنائها الشبان المخلصين، ويلذ لي بالأخص أن يكون العدد الأول حافلاً بجمّ الخصوبة والانتاج حتى يكون شجاً في حناجر

أحلاس الجمود وطعنة في أكبادهم وغلة لا ينطفئ لها لهب في عباد
الموت وأمساخ القديم.

وفي الختام تقبل تحية أخيك المخلص:

أبو القاسم الشابي

إنني أنتظر فأسرع بالجواب!

* * *

بني خلاد في ٢١ فيفري ١٩٣٠

أخي وصديقي العزيز:

يصلك طي هذا نبذة مما كتبه عن تولستوي وقد دفعني للكتابة عنه ما
رأيت من تنديد صاحب الكلمة المنشورة في المجلة تحت عنوان «تونس
وتولستوي» بتقاعسنا وعدم اهتمامنا برجال الفكر العالميين.

وإنني لأستحيي أن أكون سبباً في تعشيمك متاعب لأجلي، فإن كان
في إرسال ما اكتب لك تكليف لك وشاغل يشغلك عن أعمالك فسأعدل
عنه، وإن كان الأمر خلاف ذلك فإنني أكون مسروراً جد السرور، متشرفاً
كل الشرف أن تكون صلتي مع المجلة بواسطتك، وأكون مرتاح البال من
هاته الناحية.

طالعت مرات ما كتبت عن الشعر فكان عندي أحسن ما في المجلة ولا
شك أنك ستتولى زعامة التجديد الأدبي في تونس، ونكون نحن تحت لوائك.
وإنني لأستحيي على الكتابة في ذلك المعنى ولواحقه تحت عنوان
خاص.

وكم أود أنا أيضًا أن أكتب تحت عنوان خاص كما كنا تحدثنا عن ذلك في العام الفارط.

سلامي الى كل الرفاق والى أخيك الصغير وعليك السلام والتحيات من أخيك المخلص على الدوام.

تونس: في شوال سنة ١٣٤٨^(١)

أخي الفاضل، تحيةً وسلامًا:

وبعد، فإنني أهتثك بعيد الفطر المبارك، وأسأل الله لك أن يسبغ عليك مسراته، ويفضي عليك بركاته، ويريك من نعمه ألوانًا، وأن يرزقك عمرًا سعيدًا خصيًّا منتجًا، ينتعش به الأدب في هذا البلد القاحل الممحل الجديب، ويهب هبته التي تزعزع الجذوع النخرة، وتقتلع الصخور الجاثمة في وضح الطريق.

سألني أيها الأخ هل في توجيه رسائلك الممتعة الراقية الى «العالم» بواسطتي تعب يلحقني أو وصب ينجر إلي؟ وماذا عساي أن أجيبك ان كان تساؤلك حقًا؟ بل ماذا عساي أن أقول ان كنت جادًا في استفسارك؟ يعلم الله يا صديقي ان لا حرج علي في ذلك ولا نصب، وان ما ظننت أنه يكلفني نصبًا انما هو مبعث مسرة لنفسي وإيقاظ لعواطفني التي أركدتها عقول الناس الخامدة وكلماتهم الباردة التي لا تنبه فكرة ولا تحرك وجدانًا. ألا يسرني يا صديقي أن أكون أنا أول من يطلع على ما تخطه يمينك وتقطر بسحره يراعتك الحية اليقظي؟

(١) مارس ١٩٣٠.

ولا أنسى أن أطلب عفوك فإنني ما تأخرت عن مراسلتك لحد الآن،
 إلا لأنني - علم الله - في شغل شاغل وعمل متواصل ونصب كامل لا
 راحة فيه ولا روح وانما هو كَرَّة إثر أخرى، ومجهود وراء مجهود ونفس
 صاعد كأنما يصعد في السماء، ومَلل أليم سميكَ الحجب ليس له ما يهلهل
 حواشيه أو يلقي على ظلمته قبساً من نور أو شعلة وميض. لقد أعجبت
 وأعجب الناس برسالتك الأولى في «العالم»، اذ انها أحاطت بما عرضت له
 إحاطة لم نعثر على مثلها فيما رأيت، ولا عثر الناس. وليس لي من نقد
 عليها الا انك وعدت بمتابعة النقد ثم كفت، وعسى أن يكون ذلك غمامة
 عارضة لا تلبث ان تنقشع، ولا اخالك الا لا زلت جاهلاً نفسي يا صديقي،
 ولولا ذلك لما اعتذرت لي تلك الأعذار عن انتقادك كأنك به انما تُقدم على
 عمل منكر. لا أظن الصداقة تقف الى هذا الحد في التعرض لحركات
 العقول لأن الصداقة انما هي ضرب من حرية الروح ويقظة الفكر وانتباه
 العواطف، فان كانت تشل من حركة العقل وتصفد من أعضاء القرائح
 والعقول، فلا كانت هذه الصداقة، ولا كان قلب يحبها شيئاً من حنوه
 وحنانه. لتتقديني يا صاحبي ما دمت ترى الحق في جانبك ولأنتقدك ما دمت
 اعتقد إنني أتكلم بوحى الحقيقة المقدس دون أن يكون في ذلك ما يمس
 عاطفة أو يجرح ودًا أو يؤذي وجدانًا. ذلك مذهبي أصارحك به يا
 صديقي، وبودي أن تعلمه حق العلم وتدرّيه حق الدراية، فإنك ان علمته
 علمت ناحية من نفسي كانت لديك مجهولة، وأنا أود أن أكون لمن أوده
 وأصافيه واضح الجوانب لا تغشيه سحب ولا تحجبه ظلمات. . .

اما رسالتك الثانية فليس لديّ متسع من الوقت لأجيبك عنها،
 وحسبي أن أقول لك انها ستبرز في هذا العدد من «العالم الأدبي»، فقد

أصبح هكذا اسم المجلة - وأن أعلمك أنني بها جدًا معجب، فله هي!

تقبل التحية من أخيك على الدوام:

أبي القاسم الشابي

تونس: في ٢٠ شوال ومارس سنة ١٣٤٨هـ / ١٩٣٠م^(١)

الأديب الكبير أخي الفاضل الأستاذ محمد الحليوي:

تحية وسلامًا.

وبعد، فإنني في شوق الى أخبارك وأحاديثك ونفثات قلمك وآيات بيانك. فقد وعدت انك ستقدم الحاضرة، ثم تَصْرَمَ الاسبوع تلو الاسبوع والشهر اثر الشهر ولم يأت ولا جاءنا من ناحيتك نبأ، وقد وعدت أنك ستكتب وتكتب... عن كتابي وعن تولستوي، وعن أدب الفرنجة وانك ستترجم قطعًا فلسفية وآيات شعرية... وغيرها ولكنك لم تنفذ من كل وعودك شيئًا. ما هذا أيها الصديق؟ ان تونس لفي حاجة الى أبنائها الذين تتدفق في دمائهم عزمات الفتوة ونخوة الشباب ونشوة الأحلام... ان تونس لفي حاجة الى ان تتقدم بخطوات ثابتة الى سبل النور والزهور... ان تونس لفي حاجة الى ان ترفع رأسها عاليًا حتى تشاهد أنوار السماء وشموسه وحتى تقبل شفيتها أضواء النجوم... ولئن كانت تونس فقيرة الى هذا الضرب من ابنائها، هذا الضرب الذي يحن إلى أن يعيش عيشة كلها حق ولذة وجمال وكلها احساس وشعور وعواطف، أقول إن كانت تونس فقيرة الى مثل هذا النوع من أبنائها، ليجب على هذا النفر القليل منهم أن

(١) ٢١ مارس ١٩٣٠.

يبدلوا كل ما في جهدهم من عزم وقوة وحمية وشباب، حتى يستطيعوا أن يكونوا نشئًا حيًا مخلصًا شاعرًا بواجبه لأمتة وللحياة وللوجود بأسره، وان يخلقوا في الواقع ذلك الوسط الحي الجميل الذي نتصوره في أحلامنا، ثم نلتفت حوالينا فلا نلمح له أثرًا، واذن فلتكتب ولتعمل ولتطرد عنك خواطر الراحة والسكون، فان شعبك في حاجة اليك وليس لك شيء من العذر في أن تسكن ولا تعمل، فإنني لأجدر منك بالعذر وأنا بين دروس قانونية متوافرة تكد الذهن وتقتل الوجدان ومطالعات في القانون اكثر تغشية للنفس وإركاذًا للعاطفة وإخماذًا للتفكير من أي شيء في هذه الدنيا. . إنني انتظر رسالتك الأدبية والودية بفارغ صبر، فإنها هي التي تزيل عني بعض هاته الوحشة التي أجدها في كتب القانون وبعض هذا التجهم والعبوس اللذين أُلْفِيهما في مطالعته. كنت حدثتك أن مقالك سيدرج في هذا العدد من العالم الأدبي، وذلك ما نبأني به الأخ زين العابدين أول الأمر، ولكن ضاق نطاق العدد عنه، وسينشر في العدد المقبل آخر هذا الشهر، واليوم أرانيه الأخ زين العابدين مطبوعًا، ولكن هذا لا يدعوك الى أن تؤجل الكتابة الى الشهر المقبل. فإنّ هذا هو الذي لا أرضاه.

ماذا أحدثك عن العالم - أولًا - والعالم الأدبي - ثانيًا - لقد أحدثت من الرجة في الخارج ما أحدثت وغيّرت نظرة الشرقيين الى تونس تغييرًا ما كانوا يتوقعونه، وأصبحوا ينظرون اليها نظرة لم تكن من قبل. لقد كتبت عنها كثير من الجرائد والمجلات الشرقية ولا يسعني أن أستوعب لك حديثها كلها، ولكنني اقول لك إن «المقتطف» قد قالت ما مضمونه إن من العار علينا أن تكون في تونس مثل هاته النهضة وهذا الشباب وهاته الحركة الفكرية ثم لا نعلم بها ولا نتحدث عنها، فإننا ما كنا نحسب في تونس مثل

هاته اليقظة الفكرية التي رأيناها في العالم التونسي ، والذي أرانا أن الشعب التونسي شعب يحس بالحياة حقًا . أرأيت أيها الصديق كيف كانوا يتصوّرون تونس قبل الآن؟ لا إخالهم كانوا يحسبونها الا كالسودان وأعماق افريقيا الجنوبية . وكتب شاب سوري الى الأخ زين العابدين كتابًا قيّمًا مستفيضًا يستوعب ثلاث صفحات من الحجم الكبير يعجب «بالعالم» التونسي بطريقة لم يسبق اليها و«الاستاذ الشابي» الذي أبان عن فكرة قيمة دقيقة في فهم الشعر والنظر إليه - كما يقول الكاتب - ومصطفى أفندي خريف الذي شابه كثيرًا بشعره البائس الحزين شاعر الأسى وأمير البؤساء الاستاذ انور العطار شاعر دمشق وقصيدة السيد كرباكة التي تناول فيها غضبة شاعر العراق الرصافي ، وقد أمضى هذا الكاتب رسالته بـ«فتى العرب» ، وهو اسم طالما رأيته في بعض الصحافة الشرقية . كما جاء الى الأخ زين العابدين أيضًا كتاب آخر من مصر يعجب بهاته النهضة الفكرية في تونس ، ويتهيج بها ويتمنى لها قوة وشبابًا .

وحتى رجعيو مصر ، فقد بلغهم نبؤها وتخوّفوه ، فقد بعث الشيخ الخضر حسين التونسي الى الأخ زين العابدين يعجب بمشروعه وعمله ، ولكنه يترآى بين سطور الشكر انه يوجس خيفة ، فقد قال له فيما قال : لقد خرجت المجلة بخطة جديدة ما كنا نتظرها من تونس ، فقد عرفنا تونس بلدًا هادئًا أمينًا مسالمًا بعيدًا عن كل الحركات الثورية والخطط الطافرة . . . الخ .

وبعد فإني أحبيك الآن والى اللقاء! . . .

أخوك المخلص : أبو القاسم الشابي

تونس: في ١٥ جوان ١٩٣٠

أخي الفاضل الأعز:

تحية وسلامًا.

وبعد، فإنني سأبدأ بنقدك قبل أن أبدأ بتهنتك، ولتعدرنني على ذلك فإن للمودة سورة وثورة قد يحركها أخف البواعث. أنت تعلم انني أكدت عليك العهود على أن نلتقي قبل سفرك ووثقت وأكدت. وتعهدت بذلك وافترقنا عليه، ولكنك اخلفت وعدك ونقضت عهدك وما كنت أظنك مخلاقًا ولا اعهد فيك هاته الخلة.

ستقول ان لك أعذارًا ومناوح، ولكنني لا أريد أن أسمع هاته المعاذير ولا أن أقيم لها وزنًا. وحسبي انك اخلفت والسلام، وحسبك هذا من لوم الصديق.

وقد علمت عشية امس انك كنت من الفائزين في امتحانك، فاغتبطت وان كنت تنبأت بذلك من قبل، لا لأنك صديق يسرني ادخال السرور على قلبه فقط، ولكن لأن تلك الشهادة مرحلة أولى من مراحل حياتك الأدبية المنتجة. فهي ستدعوك الى أن تدأب على دراسة اللغة الفرنسية واستخراج كنوزها ونشر آياتها الرائعة بين أبناء شعبك الضائعين، وهي ستكون دافعًا يدفعك الى الاستزادة من مناهل الفن السامي الذي تطمح اليه نفسك المنتجة ومعينًا على تكوين ثقافتك كما تبتغي أن تكون. فاهنأ يا صديقي بهاته الشهادة وان كانت دون مداركك ومواهبك، وأضيق من أن تسع نفسك الكبيرة.

اليوم صباحًا جاءني الاخ زين العابدين السنوسي ، وناولني مجلة
«العالم الأدبي» التي خرجت أمس ، فإذا بها قد انتقلت لطور آخر في جمال
المظهر وحلاوة الشكل ، وانني لأتوسّم لها مستقبلا زاهراً لخير هاته البلاد
المسكينة .

وقد سألني عن عنوانك ليكاتبك اليه ويطارحك شكره وإعجابه بقوة
نفسك ورزانة تفكيرك وعمق بحثك وتحليلك . والسلام عليك من أخيك
المشتاق اليك المعجب بك .

أبي القاسم الشابي

الفصل الثامن: من إخوانيات معروف الرصافي

هو معروف بن عبد الغني البغدادي (١٢٩٤ - ١٣٦٤ هـ = ١٨٧٧ - ١٩٤٥ م). شاعر العراق في عصره. من أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق. ولد ببغداد، ونشأ في الرصافة وتلقى دروسه في المدرسة الرشدية العسكرية. واشتغل بالتعليم. فعين معلماً للعربية في المدرسة الملكية. وانتخب نائباً في مجلس «المبعوثان» العثماني. وانتقل بعد الحرب العالمية الأولى (سنة ١٩١٨) إلى دمشق. ثم عين أستاذاً للأدب العربي في دار المعلمين بالقدس. وعاد إلى بغداد، فعُين نائباً لرئيس لجنة «الترجمة والتعريب» ثم أصدر جريدة «الأمّل». وعين مفتشاً في المعارف. من مؤلفاته «نفح الطيب في الخطابة والخطيب»، «ديوان الرصافة»، و«ديوان الأناشيد المدرسية»، و«آراء أبي العلاء».

* * *

نشر محمد مهدي الجواهري قصيدةً في صحيفة البلاد، فردّ عليه الرصافي بالكلمة التالية، وقد قدّم لها الجواهري الكلمة التالية:

أردنا - عندما ناغينا الشاعر العربيّ العظيم الأستاذ الرصافي أن يكون لنا شرف تذكّره وهو في عزّله الموحّشة، فكان لنا إلى جانب ذلك أيضاً شرف ابتعاث شاعريّته الفدّة التي حالت حوائل المرض والانعزال والنقمة

دون تمتع المعجبين في شتى الأقطار العربية بتاجها .

أما وقد هزّنا الأسد الرابض الضائق ذرعاً بعينه، المنطوي على نفسه ألماً وغضباً وكبرياء، فليكن لنا شرف الاستماع إلى زثيره .

* * *

بك الشعرُ لا بي أصبحَ اليومَ زاهرا	وقد كنتُ قبلَ اليومِ مثلكَ شاعرا
فأنتَ الذي أَلَقْتَ مقاليدَ أمرِها	إليه القوافي شُرّداً ونوافرا
إذا قلتَ شِعْراً قلتَهُ في بداعةٍ	فكانَ بهِ المعنى بديعاً وباهرا
وإن أنتَ أطلّقتَ النفوسَ من الأسى	بإنشاده يوماً أسرتَ المشاعرا
بلَغْتَ من الإبداعِ أرفعَ ذروةٍ	هوى النجمِ عنها صاغراً مُتْقاصِرا
وإنَّكَ أرقى الناطقينَ تكلُّماً	بحقٍّ وأنقى الساكتينَ ضمائرا
إذا شِئىءٌ ظَلَمَ قمتَ للظلمِ رادعاً	وإن سِئىءٌ حقٌّ قمتَ للحقِّ ناصرا

* * *

لئن كنتَ تَتَمَى للجواهرِ نسبةً	لقد كنتَ تحلو بالبيانِ جواهرها
نماكُ أبٌ بالعلمِ شَيْدَ مَجْدِهِ	وخلدٌ مِنْهُ في الزمانِ المآثرا
وَمَدٌّ مِنْ الآدابِ فيه سُرادقاً	وأكثَرُ فيه للبنينِ المفاخرها
فلا عَجَبٌ أنْ تَنْظُمَ الشُّعْرَ رائِعاً	أنيقَ المعاني زاهيَ اللفظِ زاهرا
وقد تُبَصِّرُ الماءَ الزُّلالَ بهِ القذى	فَتُغْمِضُ عَنْهُ بالإباءِ النُّواظرا

ما أوحته إليّ قصيدتك :

ألا إنني رغم انتباهي لم أزل	بأكثرَ ما قد قلتَهُ أنتَ حائرا
تحدّثتُ عن ماضٍ حديثاً مُجمّماً	كأنَّكَ فيه لم تكن لي عاذرا
وما كُنتُ مختاراً كما أنتَ قائلٌ	من العيشِ ما لولاهُ ما كنتُ شاعرا

ولا اخترتُ عيشًا بينَ بينَ مُوسَطًا
ولكنْ هي الأقدار تجري بغير ما
فَتَجَعَلُ ليكَ الغابِ يتلو فُرانقًا
وَكَمْ أَقْدَرْتُ من كان في الناس عاجزًا
وما المرءُ إلَّا مجبرٌ في حياته
وُلِدْنَا وعِشْنَا ثمَّ مُتْنَا وكلُّ ذا
أَجَلُ كُنْتُ من تَيْنِ الحياتينِ آخِذًا
وجادَلَنِي قومٌ بغيرِ درايةٍ
واسألُ فأمئنْ بالجوابِ تفضلاً
أَأَنْتَ الذي فَضَّلْتَ عيشًا مُعَيَّنًا
فَصِرْتُ به في القومِ شاعرَ مَجْدِهِم
إذا كان هذا هكذا منك واقعًا
علامَ إذنْ تشكو وشكواك كُلُّهَا
ومن ذا الذي قد عاشَ في الناس راضيًا
ولو كان عيشُ الناس وفقَّ اختيارِهِم

* * *

لَحَى الله دنيا كُلُّنا من جرائِهَا
ونحنُ مدى الأيامِ نشكو بعِشَّنَا
نرى واحدًا يقتادُ ألفًا لِعِيشِهِ
ولو وُزِنَتْ أَعْمَالُهُم باقتدارِهِ

(١) خائراً. مختاراً.

فما عاشَ في محياهُ عيشًا مُرَفَّهاً منَ الناسِ إلّا منَ تَحَيَّلَ ماكرا
شقاءً على كُرِّ الجديدينَ آخِذٌ بأعناقنا إلّا القليلَ المماكرا

* * *

وما الشَّعْرُ بالحبلِ الذي قد ذَكَرته ولكنه بَرَقَ تمَوَّجَ دائرا
فما الشَّعْرُ إلّا من بروقِ دوائر تدورُ أواليها لتلقى الأواخرا
إذا لَمَعَتْ فوق الطروسِ فإنَّها تَرُدُّ إلى التبرِ المذابِ المحابرا

* * *

إذن لم أكنُ في عالمِ الشعرِ مُرغَمًا لأوّلِهِ حتى يلاقِي آخرا
نعم كنتُ في تلكِ الأمادِيعِ شاتِمًا زمانًا يوالي كلَّ من كان جائرا
وكنْتُ بذاكِ المدحِ للمدحِ هاجيًا وكنْتُ بذاكِ الشَّعْرِ للشَّعْرِ حاقرا
إذا الدُّرُّ أَمسى كالسَّخابِ مُحَقَّرًا شَدَّدْتُ به للنابحاتِ سواجرا^(١)
وما العارُ في هذا عليّ وإنّما على من أضاعوا مَجْدَهُم والمفاخرا

* * *

ومن رسائله إلى مظهر الشاوي نثب الرسالتين التاليتين:

أما الرسالة الأولى، فقد رُوي في مناسبتها أنّه لما بلغ مظهر بك
الشاوي وهو معتقل في العمارّة، أنّ الرصافي يعاني ضنك العيش، أرسل
إليه مائة دينار، فكتب إليه الرصافي كتابًا يشكره فيه، وكانت فيه هذه
القصيدة:

إلى مظهرِ الشاويّ منِّي تحيةٌ كأخلاقِهِ فيها الثناءُ المعطرُ
فتى مدّ في أعلى المفاخرِ باعهُ فأذركَ ما إدراكُهُ مُتَعَدَّرُ

(١) السواجر جمع ساجور، وهو القلادة التي توضع في عنق الكلب.

لآبائِهِ فِي السَّالِفِينَ مَكَارِمُ
فَمِنْهُمْ لَهُ مَجْدٌ تَلِيدٌ مَقْدَمٌ
وَرُبُّنَا يَخْفَى عَلَى النَّاسِ فَضْلُهُمْ
عَلَى مِثْلِهِ عَدْنَانِ تَحْسَدُ حَمِيرًا
أَمْظَهْرُ قَدْ أَخْرَسْتَنِي إِذْ شَمَلْتَنِي
عَلَى حِينَ كَانَ النَّاسُ شَتَّى قُلُوبُهُمْ
فَأَطْلَقْتَ بِالْإِحْسَانِ حَرًّا مَقِيدًا
فَوَاللَّهِ لَا أَدْرِي وَإِنِّي لِحَائِرٌ

بِالسَّنَةِ الْأَمْجَادِ تُطْرَى وَتُذَكَّرُ
وَمِنْهُ لَهُمْ مَجْدٌ طَرِيفٌ مُؤَخَّرُ
فَيُظْهِرُهُ كَالشَّمْسِ لِلنَّاسِ مُظْهِرُ
وَمَا حَسَدَتْ عَدْنَانٌ فِي الدَّهْرِ حَمِيرُ
بِعَاطِفَةٍ قَدْ ضَاقَ عَنْهَا التَّصَوُّرُ
وَكُلُّ لِكُلِّ كَارِهِ مُتَنَكِّرُ
بِهِ يَتَرَامَى جَدَّةُ الْمُتَعَشِّرُ
بِأَيِّ لِسَانٍ نَاطِقٍ لَكَ أَشْكُرُ

* * *

سَجَايَاكَ فِيهَا مِنْ مَزَايَاكَ مَنَظَرُ
إِنْ اغْتَقَلُوكَ الْيَوْمَ أَنْ كُنْتَ مُخْلِصًا
وَمَا فِي اعْتِقَالِ الْحُرِّ لِلْحُرِّ وَضْمَةٌ
وَسَوْفَ يَدُورُ الدَّهْرُ دَوْرَتَهُ الَّتِي

يُصَدِّقُهُ مِنْ حَسَنِ مَسْعَاكَ مَخْبَرُ
فَإِنْ اعْتِقَالَ الْمَخْلُصِ الْحُرُّ مِنْكَ
وَلَكِنَّهُ فَخْرٌ بِهِ الْحُرُّ يَفْخَرُ
بِهَا ظَلَمُهُمْ يُطَوِّى وَذِكْرُكَ يُنْشَرُ

* * *

سَأَشْكُرُكَ الشُّكْرَ الَّذِي أَنْتَ أَهْلُهُ
وَأَجْعَلُ قُرْصَ الشَّمْسِ عِنْدَ طُلُوعِهَا
إِذَا ذَرَّ قَرْنُ الشَّمْسِ كُلَّ صَبِيحَةٍ

وَإِنْ كَانَ شُكْرِي عَنْ نَوَالِكَ يَقْصُرُ
عِلَامَةً شُكْرِ كُلِّ يَوْمٍ يُكَرَّرُ
تَلَا قَرْنَهَا شُكْرُ كَوَجْهِكَ مُزْهِرُ

الأعظمية ٢٤ تشرين الأول ١٩٤٤

معروف الرصافي

* * *

والرسالة الثانية التي أرسلها الرصافي إلى الشاوي كانت على أثر تلقيه هدية صاحبه وهي كسوة عربية كاملة، وهي بتاريخ ١ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٤٤، وهذا نصها:

إلى غرة آل الشاوي^(١)

إليك يا مظهر الشاوي مغلغلة	فيها الثناء لكم كالدر في الصدف
تأتبك تحمّل إجلالاً وتكرمة	من شاعرٍ شاكِرٍ بالصدقِ مُتّصفٍ
ما إن تَفَوَّه عن كذبٍ ولا ملقٍ	ولا تمدح عن عجبٍ ولا صلفٍ
يا خيرَ ذي نَسَبٍ بالنبلِ مُعْتَجِرٍ	بالمجدِ مؤتزرٍ بالفخرِ ملتجِفٍ
أهديت لي حلةً غيظَ الحسودُ بها	لأنها تحفةٌ من أنفُسِ الثَّحَفِ
فرحتُ أَرَفُلُ فيها وهي ضافيةٌ	وأنتَ تَرَفُلُ في الضافي من الشُّرفِ
وصارَ عيشي بما أوليتني رَغَدًا	وكانَ من قبلُ رهنَ البؤسِ والشُّظفِ
يا ابنَ الدين أقاموا في مواطنهم	للمجدِ صَرَحًا منيفًا عالي الشُّرفِ
قد خَلَفوكَ لعالي مجدهم خَلَفًا	للهِ دُرُكٌ ما أعلاك من خَلَفٍ!

أيها الشهم العربي الجليل:

قبل أسبوع تسلمتُ عطاءكم الجزيل من يد الملازم يوسف عبدالوهاب، واليوم تسلمتُ هديتكم النفيسة من يد عبد الكريم كنه. وهي كما قلتُ في كتابكم السابق (كسوة كاملة). ولا حاجة الى بيانها

(١) عاد الرصافي فأرسل هذه القصيدة مرة أخرى الى الشاوي بتاريخ ١٩٤٤/١١/٤ مع المقدمة الآتية «أرسل مطهر الشاوي الى الرصافي كسوة كاملة بجميع متمماتها حتى المناديل، فأرسل اليه الرصافي هذه الايات» ويبدو انه أرسلها طي رسالته الرابعة المؤرخة في ١٩٤٤/١١/١٢ كما أشار في آخر تلك الرسالة

بالتفصيل ، لكثرة ما فيها مما يزيد على الحاجة أضعافاً ، فأسأل الله أن
يكسوكم حلل الصحة والعافية كما كساكم حلل المجد والشرف .

الأعظمية ١ تشرين الثاني ١٩٤٤ م .

معروف الرصافي

الفصل التاسع: من إخوانيات مي زيادة

هي ماري بنت إلياس زيادة (١٣٠٣هـ/١٨٨٦م - ١٣٦٠هـ/١٩٤١م) أديبة كاتبة نابغة. أتقنت إلى العربية الفرنسية والإنجليزية والإيطالية والألمانية. وكتبت في الجرائد والمجلات. حوّلت بيتها إلى منتدى أدبي. من مؤلفاتها «باحثة البادية»، و«سوانح فتاة»، و«الصحائف»، و«كلمات وإشارات».

* * *

من مي إلى جبران

تقدير ومشاركة... واختلاف

... إننا لا نتفق في موضوع الزواج يا جبران. أنا أحترم أفكارك. وأجل^(١) مبادئك، لأنني أعرفك صادقاً في تعزيزها، مُخلصاً في الدفاع عنها، وكلها ترمي إلى مقاصد شريفة، وأشاركك أيضاً في المبدأ الأساسي القائل بحرية المرأة. فكالرجل يجب أن تكون المرأة مُطلقة الحرية بانتخاب زوجها من بين الشبان، تابعة في ذلك ميولها وإلهاماتها^(٢) الشخصية، لا

(١) أحل. أقدر.

(٢) إلهاماتها: ما توحى به نفسها

مكيفة حياتها في القالب الذي اختاره لها الجيران والمعارف، حتى إذا ما انتخبت شريكاً لها، تقيدت بواجبات تلك الشركة العمرانية تقيداً تاماً. أنت تسمي هذه سلاسل ثقيلة، حبكتها^(١) الأجيال، وأنا أقول إنها سلاسل ثقيلة، نعم، ولكن حبكتها الطبيعة التي جعلت المرأة ما هي. فان توصل الفكر إلى كسر قيود الاصطلاحات والتقاليد، فلن يتوصل إلى كسر القيود الطبيعية، لأن أحكام الطبيعة فوق كل شيء. لم لا تستطيع المرأة الاجتماع بحبيبها على غير علم من زوجها؟ لأنها باجتماعها هذا السري، مهما كان طاهراً، تخون زوجها وتخون الاسم الذي قبلته بملء إرادتها، وتخون الهيئة الاجتماعية التي هي عضو عامل فيها.

أمانة زوجية

عند الزواج، تعد المرأة بالأمانة، والأمانة المعنوية تضاهي^(٢) الأمانة الجسدية أهمية وشأناً. عند الزواج، تتكفل المرأة بإسعاد زوجها، وعندما تجتمع سراً برجل آخر، تعد مذنبية إزاء^(٣) المجتمع والعائلة والواجب. ربما اعترضت على هذا بقولك: إن الواجب كلمة مبهمه^(٤) يغسر تحديدها في أحوال كثيرة، فليس لنا إلا أن نعلم «ما هي العائلة»، لنجد الواجبات التي يفرضها على أفرادها. ودور المرأة العائلي هو أصعب الأدوار وأوضعها^(٥) وأمرها.

(١) حبكتها: شدتها وأوثقتها.

(٢) تضاهي...: تشابهها وتزيد عليها.

(٣) إزاء: مقابل، أمام.

(٤) مبهمه: غير واضحة.

(٥) أوضعها: أحقرها وأقلها شأنًا.

إنني أشعرُ شعورًا شديدًا بالقيود المُقَيِّدَة بها المرأة، تلك القيودُ
الحريريَّةُ الدقيقَةُ كنسيج العنكبوت، المتينَةُ متانةً أسلاك الذهب. ولكن إذا
جَوَّزنا لسلمى «سلمى كرامة بطلة الرواية» ولكلِّ واحدةٍ تُماثلُ^(١) سلمى
عواطفَ وسُموًا وذكاءً، الاجتماعَ بصديق شريف النفس عزيزها، فهل يَصُحُّ
لكل امرأةٍ لم تجد في الزَّواجِ السَّعادةَ التي حَلَمَتْ بها^(٢) وهي فتاةٌ، أن
تختارَ لها صديقاً غيرَ زوجها، وأن تجتمعَ بذلك على غير مَعْرِفَةٍ من هذا،
حتى وإن كان القصدُ من اجتماعهما الصلاةَ عند فتى الأجيالِ المصلوبِ^(٣).
مي . . .

(١) تماثل . تشبه

(٢) حلمت بها . تمتتها، أملت بها.

(٣) المصلوب . المسيح

الفصل العاشر: من إخوانيات مارون عبود

أديب لبناني نقّادة عنيف كثير التصانيف، من أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق (١٣٠٣هـ/١٨٨٦م - ١٣٨٢هـ/١٩٦٢م). مولده ووفاته في قرية عين كفّاع ببلبنان. عمل في التدريس والصحافة. أصدر نحو ٥٠ كتاباً تُرجم بعضها إلى اللغات الأوروبيّة، ومنها «جدد وقدماء»، و«مجدّدون ومجتزّون»، و«سبل ومناهج»، و«على المحكّ». وقد صدرت مؤلفاته كاملةً في ثلاثة عشر مجلّداً.

* * *

سيدي الاستاذ الكبير^(١):

تلقيت كتابكم الكريم وتمنيت لكم توفيقاً في مهمتكم التي انتدبتم لها مقروناً بطيب الإقامة في وادي النيل.

كم نكون مغتبطين بزيارتكم بيروت لتشرف بمقابلتكم، وزيارتكم التي تهلل الجامعة الوطنية بها، فأهلاً وسهلاً بالأستاذ الجليل. وعسى أن تشعرونا قبل ترككم القاهرة الى بيروت.

سيدي:

انني أنتظر رأيكم السيد الذي احتفظتم به، وكذلك رسمكم الكريم

(١) المستشرق جب.

الذي وعدتم بإرساله . أما ما كتبته جديدًا، فلم أرسله الى لندن لأنني قرأت في الصحف خبر مجيئكم القاهرة، ولم أرسله الى القاهرة خوفًا من أن يفقد، فهو محفوظ عندي لأرسله اليكم بعد عودتكم الى لندن او عندما تشرفون هذه الديار.

وختامًا تفضلوا بقبول فائق تحياتي وتمنياتي لكم.

عاليه ١٥ / ١٠ / ١٩٣٩

* * *

جواب المستشرق جب

سيدي الأستاذ المحترم:

أعترف بتقصيري في حقكم وأتسرع إلى تداركه، ولا عذر لي إلا أن شتى المشاغل قد حالت دون متابعة دراساتي في الأدب العربي الحديث مع شدة اهتمامي به، حتى عضوية المجمع اللغوي لأن غيبيتي السنوية في مصر والقيام بأعماله يضطرني إلى مضاعفة ما عليّ من الأعمال المدرسية في لندن وكذلك منعني من الزيارة المنشودة إلى لبنان.

ولقد تسلمت، ولكم مزيد الشكر، مقالكم الأخير في الأدب العربي في البرازيل وقرأته بكل اهتمام لا سيما وليس لي معرفة شخصية بالأدباء هناك وبمنتجاتهم. وقد شوقني ما كتبتهم فيهم الى الحصول على بعض منها، وسأحاول ذلك لأدرسها في الوقت القريب.

إلا أنه لا يمكنني أن أوافقكم فيما قلتم عن الأستاذ كراتشكوسكي، فإنه باحث جليل القدر في الأدب القديم والأدب الحديث قد تفرغ له من

ثلاثين سنة، وعندما ابتدأت بدراسة الأدب الحديث، اتصلت به كتابة وانتفعت كثيرًا برسالاته ومقالاته وإرشاداته، ومما يجوز أن يقربه لكم أنه تخصص بدرس الأدب اللبناني، وأراه شيخنا بهذه الساحة.

وختامًا أرجوكم قبول هذا الرسم مني مع تحياتي واحتراماتي.

في ٢٩ تشرين الثاني سنة ١٩٣٩ م.

جب

* * *

أخي عبد الله^(١):

قال شاعرنا بشار:

تعطي الغزيرة درّها وإذا أبت كانت ملامتها على الحلاب

لقد أجدت، وأحسنت، فوفقت، وبحسب نيّاتكم ترزقون.

نيّتك الحسنة وفّقت سعيك المشكور، وإن أجرك عند ربك لعظيم.

فهنيئًا لك وللوطن بيناء خليتك الاجتماعية، وسوف تقترن باسم

عبدالله المشنوق، ما دام في الدنيا دين وعلم وطب وعمل.

ألهمك ربك فأقدمت على هذا العمل الجبار، فبنيت الخلية العظمى،

وكنت يعسوب الدين والدنيا.

اني أهنتك من صميم قلبي، وليت للأمة أفرادًا مثلك ينهضون بها إلى

أعلى ذرى المدنية المثلى والسلام.

(١) الأديب الاستاذ عبد الله المشنوق.

حاشية: لقد بنيت الخلية العظمى فأرجو أن لا تنسى (النخروب) الذي تزج فيه ابن أخيك... فالضرورة قصوى.

عاليه ١٩٥٣/٤/١٧ م.

أخي شكيب^(١):

وصلتني مجلتكم (أصدقاء) فقرأتها ولم أخرم منها حرفاً. أعجبت بما فيها، وكان إعجابي بمقاصدها وعزمها أشد، حقق الله الآمال.

هذا نبأ مهم، أما النبأ الأهم فهو ما قرأته في الصحف عن ترككم كرسي السياسة القلق لتقعوا على طنفسة الأدب الناعمة. مرحى للأدب ينصرف اليه من كانوا أدباء «من البابوج إلى الطربوش».

قد تستغرب إعراضي عن التهنئة بالوظيفة والتفاني إلى ما صرت اليه. لا تتعجب، فقد تعودت - وبذا عرفت - ألا أقبل على تلاميذي وأصدقائي، اذا تسلقوا جبال الحكم، أو تزلقوا على ثلوجها، طامحين إلى الفوز بكأس البطولة.

لا تقل لي، انك تدوس كبرياء أرسطو بكبرياء أعظم منها. لا يا أخي، ولكنني أكره الحوم حول الكراسي، ولا أنظر إلى القيم الشخصية بمنظار غيري. وما أدراك، فقد يكون ولد في هذا الاشتمزاز غرور بعض الأصدقاء، المبتلين بداء الكرسي، فاحمد الذي شفاك منه.

لقد ذقنا ثمارك الشهية في (نهم) و(قدر يلهو) فعسى أن تحمل الينا (أصدقاء) كل طريف زكي.

(١) الدكتور شكيب الحابري

انني أتمنى لها المرور في أطوار العمر حاشا السرار منها.

أتمنى أحر التمني أن تنجو (أصدقاء) من الأدب الخروبي - درهم دبس
على قنطار حطب - وان تسلم من داء الاجترار، تعبيرًا وتفكيرًا، فالاجترار
طاعون الأدب العربي.

سلمك الله، وأخذ بيدك، وسلمت لمن لا ينسأك.

عاليه ١٩٤٥/١/١٥ م.

أخي الدكتور فارس الحايك - بعلبك:

يا عشير الصبا ورفيق الشباب!

ذكرتني، وما أنا بناس، بكل ما أثارته رسالتك من شؤون وشجون
بلدية.

كان في البلاد رجال يجيئون على الصوت، أيام الطربوش المغربي،
واللبادة والكبران والمداس، أما اليوم فقد ذهبت الألبسة الناعمة بتلك
الرجولة، ولم يبق منها إلا الطلول الدوارس وعليها يجب أن نبكي.

بلادنا جميلة، ولكن حظها قليل.

بلادنا مخلصنة ولكنها محبة غير محبوبة...

يغمزوننا فتليبي، أما هي فتدعو، بل وتستغيث، وما من مجيب.

بقعتنا تعيش في الظلام، وهي مقطوعة عن العالم كأنها ليست من
الجمهورية.

لا يشعر الآخرون بوجودها إلا حين يريدون إثبات وجودهم...

تقول لي، يا أخي: «وما أحلاك حين تكلمت بلغة بلادنا: قرأت
حبر على ورق في المجالس، يا ترى الطينة ما بدھا تعلق ولا مرّة؟
رجاع تا نرجع عا بلادنا نترنم بدقّ المجوز، ونقعد حد مواقدنا بالشتي
عَ ضَوّ سراج زيت الحلو، وبالصيف بعزّالنا المعمول من ورق غار
وادي الهامي، ونقضي ما تبقى من العمر مثل ما عملوا جدودنا،
ونشرب من مياه يياتنا، واللي قاعدين عَ ضَوّ الليل مثل النهار، والمي
تتدقق بدورهم وحمّاماتهم - وتلفونهم حد مخدتهم - ما هم أحسن
منا، شفناهم وشفنا أعمالهم».

ذكّرتني دعوتك إياي للرجوع بالخوري يوحنا طنوس حين جاء
للسلام على أحد المطارين، وكان هذا المطران قد اختل عقله قليلاً يوماً ثم
شفي، فقال له ذلك الأسقف: «أنت الخوري حنا طنوس؟ بعدك مشتول؟
فأجابه الخوري حنا: أنا جايي تَ إسألك يا سيدنا؟

فيا أخي الدكتور الحبيب، أنا ما زلت في عين كفّاع أعيش كما
ذكرت، فليتك أنت تفعل كما قلت ونراك بيننا في هذا الصيف. ان بلادنا
تركتها رجالها.

يهجرونها شباباً ليعودوا إليها على الأعواد أمواتاً يستريحون في ترابها
الطاهر كرفيقنا وحبينا الدكتو فرحات الذي أوحى إليك مآتمه هذه الرسالة
النفيسة.

اننا نحتاج إلى مطالبة جدية إذا أردنا لبقعتنا عمراناً، أما الحبر على
الورق فمثله معروف مشهور...

الى اللقاء في وادي الهامي، أو دير القطين. لا بل في «مار عبدا»

حيث اختبأ مدة المطران يوسف اسطفان، سكرتير عامية انطلياس، ثم مات
شهيد قهوة المير . . .

عين كفاع

عزيري ع.م. - فالوغا!

وصلتني رسالتك متأخرة، ولأحكام لا ترد تأخرت أنا أيضاً. أرجو
المعذرة.

قلت في مكتوبك إنني انتقدت رواية «الحب أقوى» للأستاذ رثيف
خوري من ناحية اللغة فقط، ولهذا أسألك إعادة النظر في المقال الأول.
أما قولك: «والقسم الآخر من الأغلاط ليس من الأهمية بحيث
يحتاج الى مثل هذا الهجوم»، فلا أوافقك عليه.

ان الخطأ خطأ، وعلى الناقد أن يدل عليه، لأن فيه ما ينفع الأديب
والناس.

أما رأيي في القصة وكتابتها فقد أبديته في ذاك المقال أيضاً. وها أنا
أعيد القول بناء على طلبك: «ان الأستاذ رثيف خوري أغزر أدباء اليوم
إنتاجاً، وفيه يصح قول زهير في الحرب:

«يغلُّ لنا» ما لا تغلُّ لأهلها قرى بالعراق من قفيزٍ ودرهمٍ

وانتاجه هذا يقرأ بلذة لأن كاتبه ذو شخصية ذات علامات فارقة،
ولآثاره «ماركة مسجلة» يعرفها بها اللبيب، وهي تلك التعابير التي يرسلها
رثيف عفو الطبع، فتجيء طريفةً ظريفةً.

أنا أحب رثيف خوري، ولكن هذا الحب ليس يحول دون نقده، وما

أحسب ما دلت عليه من خطأ عند رثيف، إلا خطأ نراه عند كتاب الوقت القارحين. ولا أحسب الأستاذ معولاً على هؤلاء. ظنهم «ثقات» فوق في ما وقعوا فيه.

ان الأستاذ رثيف خوري هو «الأمل المنشود» كما قال شاعرنا الكبير الأخطل الصغير، ومعاذ الله أن يضيع من يدي...

فانعم يا عزيزي عبد الكريم بالآ، ان أديك المفضل رثيف خوري يبدو على محك الفن من عيار عشرين وما فوق، وسيصير عيار ٢٤ اذا تأنى ولم يلب كل صوت. وما تلك «الأغلاط» إلا زنجار أزاله المحك عن الذهب، فأعاد إليه رونقه وسناءه.

عين كفاح ١٥/٩/١٩٥١ م.

عزيزي الأستاذ بطرس بوارى:

لا أستطيع أن أقول لك كما قلت لي: «إعجابي وتقديري لك كبيران» لأنني لا أعرفك، وإن كان «البواريون» أبناء عم لنا يصح فينا وفيهم قول عمر لهند: «إنما نحن وهم شيء أحد».

اعذرني إذن إن شككت بوجودك، لأنني أخاف أن أكون في هذه المناقشة مثل دون كيشوت وسانشو بانسا.

أشكرك أولاً، وإن كنت أبغض هذا البحث العقيم، وخصوصاً متى كان على حد قول بشار: «كالروم تغزو وتؤخذ الخزر»، تُخطيء المطبعة وأطالب أنا...

أما أضعت وقتك في انتقاد كلمة «وفير» وهي من هفوات الطبع

وصوابها: «يوشح الواقع ببرفير خياله المجنح».

ثانيًا - وأنا أكره جدًا أولًا وثانيًا وثالثًا - «اللها تفتح اللهى»، هي كما قلت، والكلمة مقولة قديمًا، وأظنني أحسن كتابتها على حقها، فهي إما من كبائر المطبعة، وإما من خطايا ناموسي...

ثالثًا - تسألني عن فعل نخر وتقول: والفعل بكسر الخاء لازم، ولم تنص كتب اللغة على أية تعديل له.

لقد ذكرت الكسر، يا أخي، ونسيت الفتح... فقد عدت العرب نخر المفتوح الخاء وقالوا: نخر الناقة... الخ. فكما عرفوا هم كيف يستدرون الناقة بنخرها، كذلك يحق لنا نحن أن نفعل، بعدما عرفنا ما يَنْخُرُ العظم وغيره...

أما قولك: «وأظن أنه لو جازت هذه التعديّة لأدخله من عرب التوراة، ومنهم الشيخ إبراهيم اليازجي».

أنت تجهل، يا صاحبي، أن هذه الآية محذوفة من «توراة البروتستان». ولو عرفت لما قلت: «ومنهم الشيخ إبراهيم».

وبعد، فكيف يأتي الشيخ إبراهيم بفعل غير موجود في الأصل فترجمة التوراة حرفية. ثم من قال لك أن الشيخ إبراهيم مضى لسبيله ورد الباب خلفه؟

أما كلمة «احتار»، فقد كثر سائلي عنها حتى أجبت أحدهم «جهاد» في مجلة الأحد، وأن صدق الظن، فأنت «جهاد» أمس، و«بطرس بوارى» اليوم، ذلك السائل المتكتم. فقد ملأت خياشيمي رائحة أسلوبك.

وأخيرًا، كلمة القُسُسُ التي زعمت أن جمعها ممنوع لأن مفرداها قس بفتح فسكون، وهذا لا يجمع على فُعْل بضميتين.

لا، يا أستاذ، ان لفظة قس مثلثة القاف، وهي سريانية معربة، أصلها قشو، وقشيشو، ومعناها الشيخ والقديم. والشيخ فاضل عندهم، والقديم مقدس دائمًا. ولذلك جاء في المعجم الذي اعتمدت عليه القسس الفضلاء. فليتك شعرت بأن قوله «الفضلاء» يدل على أنها جمع! أليس كذلك؟

وأما اعتذارك أخيرًا عن النقد بقولك: «ان كل ما قصدت ليس إلا محض استيضاح دون أن يكون له ثمة أي نقد» (كذا).

فالجواب عليه أنك لم تنتقد رجلًا معصومًا، وأنا أرحب بالنقد ترحيبي بصديق عزيز. وأرجو منك ألا «تشفق أن ينشب بيني وبين الأستاذين مبارك إبراهيم والعوضي الوكيل نقد لغوي».

لكل خطاب يا بشين جواب. وما إخالك رأيت مني غير ذلك.

١٩٥٣/٨/٣١ م.

الفصل الحادي عشر: من إخوانيات طه حسين

هو طه بن حسين بن علي بن سلامة (١٣٠٧-١٣٩٣هـ. = ١٨٨٩-١٩٧٣م.) من كبار المحاضرين، جَدَّد مناهج، وأحدث ضجَّة في عالم الأدب العربي. ولد في قرية «الكيلو» بالصعيد المصري، وأصيب بالجذري فكُفَّ بصره. وبدأ حياته بالأزهر، ثم بالجامعة المصرية القديمة، وهو أول من نال الدكتوراه منها بكتاب «ذكرى أبي العلاء»؛ وسافر في بعثة إلى باريس فتخرج بالسوربون. من مؤلفاته «في الأدب الجاهلي»، و «على هامش السيرة»، و «مع أبي العلاء في سجنه»، و «مع المتنبي».

* * *

من طه حسين إلى صلاح لبكي:

سيدي الأستاذ الكريم:

وصل إليّ كتابك والمنهاج المرفق به من مدينة فلورنسا حيث كنت أشهد مؤتمر السلام والحضارة المسيحية. وهذا السفر الذي سيضطرنني إلى الغيبة عن مصر ثلاثة أشهر يمنعني بالطبع من أن أنهض بالمهمة التي تفضّلت فوكلتها إليّ، على أن أكون صلة بينك وبين الزملاء المصريين لمعرفة الأدباء الذين يرغبون في أن يشتركوا في اجتماع «أهل القلم» على

نفقتهم الخاصّة .

ولم يكن أحبّ إليّ من أن أنهض بهذه المهمّة لولا أنّ كتابك قد وصل إليّ متأخراً . ولقد اتصلت بالأستاذ رثيف أبي اللمع لأسأله عن أمر هذا الاجتماع ، فلم ينبئني بشيء لأنّه لم يكن يعرف شيئاً . والخير كلّ الخير هو أن تكل هذه المهمّة إلى أحد الزملاء المصريين الموجودين الآن في القاهرة . وربّما كان الأستاذ توفيق الحكيم أقدرهم على ذلك لأنّه متّصل بكثير من شباب الكتاب .

أمّا المنهاج فليس لي عليه ملاحظة ، وأراه ملائمًا كلّ الملاءمة لأوّل اجتماع يشهده أدباء البلاد العربية .

ولكنّي أرى أنّ الموضوع الذي تفضّلتم فاخترتموه لي قد لا يكون ملائمًا للاجتماع الأوّل ، لأنّه قد يغضب غير واحد من الأدباء . فقد أضطر إلى أن أقول إنّ فنوننا الأدبية الحديثة كلّها ما زالت في طور الطفولة بالقياس إلى الآداب العالمية ، ولا سيّما في العالم القديم الأوروبي : فالقصّة عندنا ما زالت ناشئة وعيوبها أكثر من مزاياها ، والتمثيل أدنى إلى الطفولة القاصرة من القصّة . والشعر يعاني أزمة في كثير من الأقطار العربية ، وهلمّ جرّاً كما يقال .

ورأيت أنّ الاجتماع الأوّل لهذه الهيئة يجب أن يكون مشجّعًا للأدباء ، مُرغّبًا لهم في عقد اجتماعات أخرى ، وفي دعوة زملائهم إلى المشاركة فيها .

وربما كان موضوع تبعات الأديب وحقوقه في العصر الحديث وفي العالم العربي خاصّة أحقّ بالعناية وأجدر أن يرضي الأدباء ويشجّعهم من

الموضوع الذي اقترحتموه. وأنا على كلّ حال صائر إلى ما تحبّون،
ومستعدّ لأن أتحدّث في أيّ الموضوعين شئتم. فإذا تفضّلت فاكتب إليّ
برأيك ورأي الزملاء في هذا. ولك ولهم أصدق تحياتي وأخلص أمانيّ.

* * *

الفصل الثاني عشر: من إخوانيَّات توفيق الحكيم

هو أديب مصري . ولد عام ١٩٠٢ . تلقى علومه الأولى في مصر . ثم أكمل دراسته الجامعية في فرنسا . فدرس فيها الحقوق . وكان به ميل الى المسرح والتأليف المسرحي . عمل في القضاء ، ولكن رغبة عميقة للعمل في الأدب كانت تستبدّ به ، فانصرف عن القضاء الى الأدب . فكتب عددًا من المسرحيات التي جاءت على درجة من الروعة الفنية والإتقان . فنقلت مؤلفاته الى اللغات الأجنبية المختلفة . من آثاره : «أهل الكهف» ، و «عودة الروح» ، و «أشواك السلام» .

* * *

عزيزي . . .

وا أسفاه! . . . مضى عامٌ وأنا لم أزل في انتظار رَدِّ منك . رَدُّ صغير يُنْشِئني بأنَّ الحبل بيننا لم يَنْقَطع! . . يظهرُ أنَّه انقطع . . . ذلك الحبلُ الذي كان يربُطُ أحدنا إلى الآخر ، ونحن هائمان في جليد ذلك القُطْبِ «الفكري» المُرتَفِع! . . .

إني أكتبُ إليك الآن ، من مدينة صغيرة على النيل! . . . تُدعى «دسوق» هي مع ذلك مركزٌ من أهم مراكز القُطْرِ . لقد أسندوا إليَّ أعمالَ

نيابتها، فوجدت نفسي أمام عمل هالني^(١) من الكثرة والخطورة... إن قاضي المحكمة لا يُقيم في المدينة. فهو يحضر جلساته ويذهب، وبهذا صرت أنا الرئيس المسؤول عن شؤون النيابة والمحكمة معاً... لقد تبين لي بعد أسابيع أنني أنا الرئيس المتصرف في هذه المدينة كلها. فالبوليس والإدارة والصحة والهندسة والري والزراعة، وكل فروع الحكومة المختلطة تصب مشاكلها بين يدي!... حتى فيما لا يقع تحت طائلة القانون، وما يُكتفى فيه بالنصح والإرشاد، والمصالحة والتوفيق، وإقرار النظام بالحسنى...

كل ذلك يحتاج إلى رأي، ولكلتي فيه المقام الأول... لقد شعرت حقاً بعبء المسؤولية... فدفعني ذلك إلى العمل المضني^(٢).

لقد وضعت نظاماً دقيقاً للعمل لا أتحرف عنه قيد شعرة. إنني أعملُ نهاري كله، من الصباح حتى الثانية بعد الظهر، ومن الرابعة حتى السابعة، فأخرجُ للنزهة ساعةً فوق جسر النيل... تلك هي الساعة التي تسمح لي فيها بتبعاتي^(٣) أن أتحرّر قليلاً لأعود إلى نفسي وذاكراتي. في تلك الساعة الهادئة، أسير وحدي فوق الجسر، أتأمل الأمواج في اصطفاقها الخافت^(٤)... فتلعب في رأسي الأفكار القديمة من جديد، أفكار الفن والأدب، فالتفت حولي جرساً عليها من مفاجيء، فلا أبصر غير الخفير^(٥)

(١) هالتي: أفرعي.

(٢) المضني: المتعب.

(٣) تبعاتي: مسؤولياتي.

(٤) الخافت: الضعيف.

(٥) الخفير: الحارس.

النَّظَامِيَّ يَحْمِلُ بِنْدَقِيَّتِهِ وَيَتَّبِعُنِي عَنْ بَعْدٍ، لِيُبَلِّغَنِي مَا يَرِدُ مِنْ إِشَارَاتٍ مُسْتَعْجَلَةٍ حَتَّى إِذَا خَيَّمَ الظَّلَامَ، عُدْتُ إِلَى مَسْكَنِي فَتَنَاولْتُ الْعِشَاءَ، ثُمَّ نَظَرْتُ فِي بَعْضِ مَلَفَاتِ الْقَضَايَا، ثُمَّ أَوَيْتُ إِلَى فِرَاشِي فِي انْتِظَارِ إِزْعَاجِي نِصْفَ اللَّيْلِ، بِبَلَاغٍ عَنْ وَقُوعِ جَنَائَةٍ! ..

لَقَدْ أَخْصَيْتُ عِدَّةَ اللَّيَالِي الَّتِي أَتَقَلُّ فِيهَا إِلَى حَوَادِثِ جِنَائِيَّةٍ فِي الْمَرْكَزِ... فَاذَا هِيَ فِي الْمَتَوَسِّطِ خَمْسُ لَيَالٍ. أَيَّ أَتَى لَا أَظْفَرُ بِأَكْثَرِ مِنْ لَيْلَتَيْنِ فِي الْأُسْبُوعِ أَقْضِيهِمَا نَائِمًا فِي فِرَاشِي كَمَا يَنَامُ الْأَدَمِيُّونَ. إِنِّي أُوْدِي وَاجِبِي دُونَ تَذَمُّرٍ، وَأَنْهَضُ بِأَغْبَاءِ عَمَلِي الْقَضَائِيِّ بِأَمَانَةٍ وَهِمَّةٍ وَاسْتِقَامَةٍ، أَلْحَظُ أَثَرَهَا الْحَسَنَ فِي مُكَاتَّبَاتِ الرُّؤَسَاءِ الرَّسْمِيَّةِ... إِنَّهُمْ يَثْقُونَ فِي تَصَرُّفَاتِي ثِقَةً تَمْلَأُنِي فَخْرًا. هَلْ كُنْتُ يَا صَدِيقِي، تَتَوَقَّعُ نَجَاحِي كَوَكِيلِ نِيَابَةٍ؟ .. وَلَا أَنَا... مَا كُنْتُ أَتَوَقَّعُ لِنَفْسِي ذَلِكَ! ..

لَقَدْ ثَبَّتَ لِي أَنِّي رَجُلٌ أَمِينٌ، لَا يَعْرِفُ الْغِشَّ فِي شُرُوطِ اللَّعِبِ! إِنِّي فِي الْفَنِّ كُنْتُ الْفَوْضَى بَعِينَهَا، وَلَكِنِّي فِي عَمَلِ الْقَضَاءِ أَنَا النَّظَامُ بَعِينُهُ، بَلْ إِنِّي - مِبَالِغَةٌ فِي الْغَيْرَةِ عَلَى سُمْعَةِ هَذَا الْمَنْصِبِ - لَا أَخْتَلِطُ بِالْأَعْيَانِ، وَلَا بِرِجَالِ الْإِدَارَةِ، وَلَا بِأَيِّ شَخْصٍ، أَكْثَرَ مِنَ الْإِخْتِلَاطِ الَّذِي يَدْعُو إِلَيْهِ الْعَمَلُ الرَّسْمِيُّ.

لَطَالَمَا سَمِعْتُ بِأَخْبَارِ زَمَلَاءِ قَضَائِيِّينَ - لَمْ يَتَّصِلُوا يَوْمًا بِفَنٍّ وَلَا بِفَنَّانِينَ - وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يُبَالُوا، فَكَانَتْ لَهُمْ فِي مَرَاكِزِ أَعْمَالِهِمْ سَهْرَاتٌ «بُوْهِيمِيَّة»^(١) وَمَغَامِرَاتٌ... تَرَكْتُ أَثَرًا فِي صَحَائِفِ خِدْمَتِهِمْ لَا يُمَحَى، أَمَّا أَنَا فَصَحِيفَتِي نَقِيَّةٌ بِيضَاءً.

(١) السهرات البوهيمية: السهرات التي يسعى فيها الإنسان وراء ملذاته.

ولقد التقيت ذات مرة بالنائب العام، فقال لي: إنه يعدني من خيرة
وكلائه عملاً واستقامةً وسمعةً.

ماذا بقي لي من الفن، ومن الفنان بقية السودان، ذات الإطار
العريض؟ كنت منذ أشهر بالقاهرة، فقابلني أحد زملاء الدراسة، يشتغل
الآن بالتجارة، ولا يعرف من أمري شيئاً. فما إن تفرس^(١) في وجهي
وهيئتي، حتى قال لي: «ماذا تعمل في الحياة؟ لا بد أنك من رجال
القضاء؟!» فذهشتُ وسألته: كيف عرفت؟ فقال لي: «شكلك وهيئتُك
وسيمائك»^(٢). عجباً!... أهكذا المهنة قد طبعني بطابعها... ورنَّ
عندئذ في أذني صوت «إيما» يوم قابلتني أول مرة وتفرست في وجهي
قائلة لي: «ماذا تعمل؟ لا بد أنك فنان في مونتريال...» وا
أسفاه!... مات ذلك الفنان... وحلَّت روحه في جسد رجل
قانون!...

كيف السبيل إلى الفن الآن، والمجتمع، كما ترى، قد هبَّ لي مكاناً
في أخضانه لا أستطيع منه فكاً^(٣)؟ أخشى أن يحطمني المجتمع... يحطّم
الفنان في... ربما كان قد حطمني وكسرنى... ولكني أقاوم... أأرضي أن
تطوينني الحياة، وتزغميني على ما لا أريد؟

فيمَ كان إذن جهادي الطويل في سبيل الفن؟ فيمَ كانت الأعوامُ
الطوال التي أنفقتها قراءةً واطلاعاً وتحصيلاً وتكويناً وممارسةً لألوان الفن

(١) تفرس: حدق.

(٢) وسيمائك: منظرِك وهيئتُك.

(٣) فكاً: خلاصاً.

وأنواع العلم وفروع المعرفة؟! لقد أردت أن أكون كاتبًا وسأكون ولكن...
كيف يا صديقي؟!

كيف السبيل إلى الخروج من إطار القضاة؟ كيف أنشر فنًا دون أن
أعرض لسخرية الزملاء، وخيبة أمل النائب العام، وفجعة^(١) الأهل
والخلصاء؟... آه يا صديقي!... معذرة!...

إني أفكر الآن تفكيرًا سخيًا... هذا كلام غير خلاق بفنّان!...
ولكن هل أنا فنّان؟ أتراها القُبعة السوداء هي التي كانت تملأ رأسي بهذه
الأوهام؟! لقد خلعتها، كما تعلم، منذ زمن بعيد، وما أنذا اليوم أتشع^(٢)
بالوسام الأحمر الأخضر...

لم أعد أسمع أحدًا يتعني بالفن... ربما قلت لي: يكفي أن
تضعني إلى الصوت الصاعد من أعماق نفسك!... أجل يا صديقي،
ولكن نفسي الآن ينحز فيها الشك، وما عذت أصدق لها كلامًا!...

وا خجله!... لست أدري كيف يتكلم هذا الكلام رجل يتشبث
بالفن... حقًا... يجب أن أؤمن بالفن... الإيمان بالفن هو
«التعويذة»^(٣) التي تفتح لي الطريق... إني أؤمن بـ «أبولون»^(٤)، أؤمن
بإله الفن الذي عقرت جيبني^(٥) أعوامًا في تراب هيكله! إنه ليعلم كم

(١) الفجعة: المصيبة

(٢) أتشع: أتزين.

(٣) التعويذة: حجاب أو نحوه يُتقى به الشر.

(٤) أبولون: إله الفن عند الإغريق.

(٥) عقرت جيبني بالتراب: مرغته فيه

جاهذتُ من أجله، وكم كافحتُ وناضلتُ وكذذتُ! باسمه أخوضُ
المعركة الكبرى، وأنازلُ كلَّ مُجتمعٍ، وكلَّ حياةٍ، وكلَّ عَقَبَةٍ تحولُ بيني
وبينَ فتى، الذي مَنَحْتُهُ زهرةَ أيامي التي لن تعود.

توفيق الحكيم

(بتصرف)

الفصل الثالث عشر: من إخوانيّات ميخائيل نعيمة

أديب لبنانيّ، ولد في بسكتا سنة ١٨٨٩م. درس في لبنان وفلسطين وروسيا. أسّس مع جبران خليل جبران ورشيد أيوب ونسيب عريضة وغيرهم الرابطة القلمية في الولايات المتحدة الأميركية. يمتاز أدبه بأنّه إنسانيّ النزعة يصوّر واقع الحياة، مع ميل شديد إلى المثلّ، وتطلّع إلى الحرّيّة، واعتبار الإنسان قيمةً في ذاته.

من مؤلفاته «الغربال» و «المراحل»، و «كان ما كان»، و «البيادر». وقد صدرت مؤلفاته كاملةً في تسعة مجلّدات كبيرة.

* * *

إلى يوسف الحوراني

بسكتا ١٩ حزيران ١٩٧٣ م.

عزيزي الأستاذ يوسف الحوراني:

كتابك الجديد «لبنان في قيّم تاريخه» كان لي بمثابة رحلة شيّقة عبر الأجيال السّحيقة. وكنت قائد الرحلة المحنّك ودليلها الأمين.

عدتُ من رحلتي وبي شيء من الاعتزاز بهذه الرقعة الصغيرة التي

أنتمي وتنتمي إليها، والتي اسمها لبنان، وبالأثر البالغ الذي كان لها في أكثر من حضارة قديمة، وبخاصة في الحضارة الهلينية.

إنّ عملك يا أخي لا ينفع اللبناني وحده. بل ينفع كلّ من شاقه أن يتقضى جذور الشعور الديني ودوافع النموّ الانساني في كلّ مكان وليس في حوض الأبيض المتوسط لا غير.

بارك الله في فكرك وفي قلمك.

* * *

إلى وليم الخازن

بسكتا - لبنان ١٦ حزيران ١٩٧١ م.

عزيزي الأستاذ وليم الخازن:

قلّما أثمر برنامج إذاعيّ مثلما أثمر البرنامج الذي كنت تتولاه برفقة الأستاذ نبيه الیان تحت عنوان «كتاب وأديب». وخير شاهد على ذلك هو كتابكما «كتب وأدباء» الذي كان حصيلة ذلك البرنامج. وقد حاورتما فيه نحو الأربعين من أدباء لبنان في مؤلف بعينه من مؤلفات كل منهم.

والحوار يجريه مذيع أو مراسل مع أديب هو فن قائم في ذاته. وأهم ما فيه أن يعرف المذيع أو المراسل شيئًا عن حياة الأديب الذي يحاوره، وعن اتجاهه، وأن يحسن اختيار الأسئلة التي يطرحها عليه. ويبدو لي أنك ورفيقك كنتما موفقين غاية التوفيق من هذا القبيل.

أحستما جدًا إذ أتيتما في بداية كل حوار على نبذة عن حياة الأديب

المحاور. وهكذا بات كتابكما يصلح مرجعاً للدارسين الذين يهمهم تتبع الأدب عندنا في المرحلة التي يتناولها كتابكما. فلكما الشكر وعليكما السلام من المخلص ميخائيل نعيمه.

* * *

الى الشاعر فؤاد الخشن

عزيزي الأستاذ فؤاد الخشن:

«سوار الياسمين» مجموعة من الصور والأنغام الشعرية التي لا تحتاج إلى منجمين لفك ألغازها وطلاسمها.

وهي تكوّن جسداً له عموده الفقريّ، فلا يبدو مخلّعا لا تستقيم له حركة إلا بسحر ساحر أو بأعجوبة من مسيح.

لكنني، والمجموعة كلها تدور حول المرأة، كنت أتمنى لو أنها تناولت منها أكثر من مكامن الشهوة. فالمرأة أكثر من انثى. انها انسان. والانسان صورة الله. والمشاعر التي تزخر بها حياة الانسان في شقيه المذكر والمؤنث لا تنبع كلها من الشهوة الجنسية.

أشكر لك تلطفك بإهداء نسخة اليّ من مجموعتك، وأسلم عليك أطيب السلام.

* * *

الى خالد الراوي

بغداد

١٩ أيلول ١٩٦٤ م.

عزيزي خالد الراوي:

إليك أجوبتي على الأسئلة الثلاثة التي تطرحها عليّ:

١- تتطور الأساليب الثرية والشعرية بتطور الإنسان، والزمان. ولن يكتب لأي ضرب من النثر أو الشعر أن يسود إلى الأبد.

٢- جوابي على هذا السؤال هو أن أدب الجنس، كما تعالجه طائفة من الكتاب المعاصرين، أدب رخيص. لأنه لا يرمي إلى تحرير الإنسان من غرائزه البهيمية، بل يشدّ به إلى مستوى دون البهيمة. فالبهيمة لا تمارس العملية الجنسية إلاّ لقصد نبيل. وهو تجديد النسل. أما الأدب المتهتك فيحاول أن يجعل من تلك العملية محوراً تدور عليه حياة الرجل والمرأة، لا بقصد تجديد النسل، بل للمتعة الحيوانية. إنه أدب يهدم الإنسان بهدمه إرادته للتفوق على البهيمة في نفسه.

٣- الرواية نبتة جديدة في تربة الأدب العربي. ويبدو أنها أخذت تتأصل وتتأقلم. فلنصبر عليها قليلاً قبل أن نطالبها ببلوغ مستوى الروايات العالمية.

* * *

إلى خالد الراوي أيضًا:

١٠ تشرين الثاني ١٩٦٤ م.

تسألني عن رأيي في أمور ثلاثة.

أدب اللامعقول . الشعر العربي ومتى يصبح عالميًا . والحب .

وعندي أن رأيك في هذه الأمور هو أخرى باهتمامك من رأيي ، أو رأي أي انسان غيري . فإذا وجدت في أدب اللامعقول ما يهزك فاهتز . وإذا نفرت منه فدعه وشأنه . فالأدب ، كالطعام : ما يهضمه ويتنفع به الواحد قد لا يهضمه ولا يتنفع به الآخر .

في الشعر العربي ، قديمه وحديثه ، ما يصلح أن يقرأه الناس في كل مكان ، وكل لغة ، إذا أتيح له من يحسن ترجمته .

عندما تحب - وأرجو أن تحب - لن تسألني : أهذا هو الحب؟ وما رأيك فيه؟ لأنك ستحب بقلبك لا بقلبي . وإذا اشتراك الفكر في الحب فسيكون فكرك لا فكري .

* * *

إلى عارف الرئيس

لبنان

بسكنتا - لبنان ، ٥ حزيران ١٩٤٧ م.

عزيزي عارف الرئيس :

قرأت رسالتك اللطيفة فراقني منها روح فتني متعطش إلى الجمال ،

وهمّني اهتمامك بالفنّ من موسيقى ورسم وأدب. وليس عندي ما أتمناه لك أكثر من أن تجعل حياتك جميلة ليأتي فنك جميلاً. فالفنّ لا يكون صادقاً وجميلاً إلا إذا صدر عن مصدر جميل وصادق. وما «ليوناردو» في قصته «لقاء» غير مثال الفنان المدرك أنّ تطهير النفس من أدران الشهوات الخسيسة شرط أساسي لنقاوة الفنّ وسموّه. وأمّا شهلة ومهلبة فما القصد منهما إلا أن أبين أنّ من طُهرت سريره كان في مستطاعه أن يؤاخي حتى الحيوان. وأن تفعل اهتزازات روحه وأشواقه فعل الحميا بل فعل السحر حتى في الثعالب. وإنني لأرجو لك أن تبلغ من فنك مرتبة تأتي مصداقاً لما أقول.

وعليك أطيب السلام من الداعي لك بالخير.

* * *

إلى عارف الرئيس أيضاً:

بسكتا - لبنان ٢٨ شباط ١٩٥٣ م.

سلام عليك وبعد، فقد تناولت رسالتك الضافية في ما دعوته «السّمواقعية» ومعها رسم من ريشتك يمثل بعض ما تعنيه. وكنت قبل ذلك قد تلقيت منك رسالة مقتضبة تحمل إليّ تهانيك بالعام الجديد. فالشكر لك. لا أكتمك اني لقيت اكبر المشقة في تفهّم رسالتك «السّمواقعية». لا من حيث التعقّد في معانيها ومراميها فقط. بل من حيث خطها. فقد أشكلت علي قراءة الكثير من كلماتها. وهكذا فاتتني منها عبارات وعبارات.

إني أؤمن بإطلاق منتهى الحرية لكل فتان في فته . وأؤمن أن تقدير أيّ فنّ مرده في الدرجة الأولى إلى الذوق . ولا إكراه في الذوق ولا منطق . انه نتيجة حتمية لعوامل خفية لا تقع تحت حصر أو بصر . فمصادرها أبعد من مجال الفكر والمنطق . لذلك أرى التفلسف فيها ومحاولة الكشف عن جذورها ضرباً من الجهد المرهق الذي لا طائل تحته . ولذلك أمر «مرور الكرام» بهذه «المدارس» الفنية الحديثة التي تنبت وتتكاثر كالفطر . فلا أشغل بها بالي . ولا أحاول مماشاتها في ما تدّعيه من تجريد وتجرد في ما تنظمه لذاتها من «فلسفات» تبرّر بها وجودها . ولا أسعى مثلها أن أدخل في صميم «اللاوعي» لأعرف ماذا يجري هناك وكيف . فإذا كان من المشقة بمكان ان نفهم ما يصدر عن وعينا ، فأنتى لنا أن نحلل ثم نفهم ما يصدر عن غير وعي منّا؟

هذه الكلمات أسوقها إليك لعلها تخفف من حدة «انخطافك» بالسّمواقعية . فترفع كابوساً عن أفكارك المرهقة ونفسك المضطربة .

* * *

وكتب إليه أيضاً:

بسكتا - لبنان ١٠ شباط ١٩٥٨ م .

لو لم يكن الفصل شتاء لأجبتك : تعال في الحال . إلّا أن الشتاء بثلجه وصقيعه يحدّ كثيراً من حرية التنقل - حتى ضمن البيت . فنحن مكروهون على ملازمة الوجاق الذي منه الدفاء والأمان من البرد ، والذي لا مجال حوالية للخلوات والتأملات . فهو ملجأ أهل البيت وملحاً الزائرين .

أما بعد أن يعتدل الطقس ونصبح في غنى عن الوجدان - أي نحو
أواخر نيسان وأوائل أيار - فأهلاً وسهلاً بك. وما عليك إلا أن تتصل بي
تلفونياً لتتفق على موعد.

* * *

وكتب إليه أيضاً:

بسكتا - لبنان ١٨ آب ١٩٥٩ م.

أرجو أن تكون بخير، وأن تكون غارقاً في العمل إلى ما فوق أذنيك.
وبعد فكنّت وعدتني بأن ترسل إليّ نسخة فوتوغرافية عن الصورة التي
رسمتها لي لعلني أستطيع استعمالها في كتابي. وها هو الكتاب قد بات الآن
في المطبعة. فهل لك أن توافيني بالنسخة الموعودة في اقرب وقت؟

* * *

الى المطران أيفانيوس زايد

دعاني المطران ايفانيوس زايد - وكان يومذاك مطران الطائفة
الأرثوذكسية في حمص (سوريا) - لإلقاء خطبة التخرّيج في مدرسة الصبيان
ومدرسة البنات التابعتين لأبرشيّته. فكانت الرسالة التالية:

بسكتا - لبنان ٨ تموز ١٩٣٣ م.

عزيزي المطران أيفانيوس:

في يدي سبحتك، وأمامي رسمك مع المنتهيات، وفي قلبي حلاوة
الأيام التي قضيتها تحت سقفك مغموراً بلطفك وأنسك وكرمك. عدت إلى

بيتي مساء الاثنين ولم اتمكن من الكتابة اليك قبل اليوم إذ كان عندي ضيف عزيز هو الاستاذ اميل ضومط . ولقد سألتني عنك وكلفني أن ابلغك سلامه . فهو لا يزال يذكر اجتماعنا في مرمريتا . اليك نسختين من صورتي لأجل المدير والمديرة . وقد اكون تأخرت في ارسالهما . فليعذراني . كلمتي للبنات قد صدرت في عدد «العاصفة» لهذا الاسبوع . وكلمتي للصبيان في عدد الخميس من «الأحرار» . ولو كان عندي اكثر من نسخة واحدة من كليهما لبعثت بها اليك .

لتكن لي حصة صغيرة من صلواتك وتأملاتك . وثق أنني أطرب لكل خير تأتيه ، ولكل مقصد شريف تقصده ، وأتمنى لك عافية الجسد وقوة الروح .

* * *

الفصل الرَّابِع عشر: من إخوانيات نزار قباني

شاعر من كبار الشعراء العرب المعاصرين، فلسطيني الأصل، سوري المولد والجنسية، لبناني الإقامة والهوى. ولد في دمشق في السنة ١٩٢٣م./١٣٤٢هـ.، وتخرّج في الجامعة السورية بإجازة في الحقوق، وخدم وطنه في السلك الدبلوماسي ما بين السنة ١٩٤٥م والسنة ١٩٦٦م. يُعتبر من كبار المجدّدين في الأدب العربي المعاصر. لقّب بـ «شاعر المرأة». واشتهر بالغزل.

* * *

أيتها الصديقة.

الآن تعودين من معسكر التدريب، وأنت كالرّاية المتعبة، كالزورق العائد من رحلة مجد..

جلستُ أدخن.. وأتأملك قطعة قطعة.. كما لو كنت لا أعرفك من قبل.

عيناك النقيّتان كأمطار ليلة إفريقية، قميصك المعقود الأكمام الذي تركت عليه البندقية بقعاً من الزيت أظهر من زيت المعابد.. أظهر من الطهر..

غطاء الرأس الجامح على شعر فوضى .

لباسك المعجون بذرات التراب ، ورؤوس الشوك ، ورائحة الأرض .
جوربك الصوفي الخشن ، راحتك الملوّثتان بشحم الزناد ، حذاؤك
الآكل من جبين الصخر يترك على أرض الحجرة قطعاً من طين يابس هي
أثمن ما تضمّه حجرتي من تحف .

أرأيت كيف تنتقل بلادي إليّ . كيف تتحوّل بلادي إلى ذرة غبار على
قميص شجاع .

قعدتُ أتأملك وأنت كزهرة اللوتس الوحشية . . ليس على فمك
شيء . . ومع هذا فهو أروع من كلّ شيء . . ذلك الثغر الراقد كنصف كرزة
حمراء . . لا يعرف من الطعام غير الهواء . . والشمس . . وجيرة العصافير . .
قعدتُ أتأمل حسنك من زاوية جديدة . أنا أمام تجربة جمال لم أمرّ
بها من قبل . لم يمرّ بها هذا الشرق من قبل .

كانت المرأة في بلادنا قطعة من قطع الآثار . . ليرة ذهبية ملفوفة
بالقطن . . تعويذة كتبها شيخ لا يعرف الكتابة . ثم انفكّ السحري يا صديقتي
وخرجت من قطنك . . من الصدفة الباردة المغلقة . وها أنت تجلسين أمامي
أغنية بطولة تقرر نوافذ الشمس .

مضى عهد كانت فيه أكبر مغامرة بطولية تنفذها امرأة هي أن تذهب
إلى حمام السوق . .

أما سمعت قول أحد الفقهاء «تخرج المرأة من بيتها مرتين . . مرة إلى
بيت زوجها . . ومرة إلى القبر . .» .

تأملني هذا المخطط الذي رسمه ذلك السخيف . تأملني هذا البرنامج الحافل الذي وضعه لتثقلك ، وتنقل زميلاتك .

مشواران فقط . . واحد إلى دار الزوجية . . واحد إلى دار الأبدية .
المهم أن صاحب القول قبر في المكان الذي أعدّه للمرأة . . وخرجت المرأة من قوقعتها الكلسية . . قفزة واحدة . . إلى العراء . . إلى ملاعب الرياح والشموس . .

أحاول الآن أن أدرس أشواقني من جديد . أن أبحث قضية الحب .
حبي لك .

قد تقولين : ما نفع هذا ونحن لم نتغير؟ هذا خطأ . إنني أشعر بتغير جذري في لون حبي . . في نكهته . . في طاقته . . في اتجاهه . .

ترى هل تختلف قضية الحب بين حالة السلم وحالة الحرب؟
هذا سؤال تحرك في جيبني أكثر من مرة .

أنا أقرر أن شيئاً ما قد وقع فأعطى جمالك مفهوماً جديداً وأعطى حبي لوناً آخر . .

إنني معجب مثلاً بهذه الكدمة الصغيرة التي تركها الزحف على التراب فوق مرفقك . معجب برائحة اللاشيء . . نعم برائحة اللاشيء تصدر عن فتحة قميصك المتعب . معجب بأظافرك التي كسرها قتال الخنادق واحداً . . واحداً . . معجب بما حملت معك من معسكر التدريب من تعب . . وغبار . . وقطرات عرق . .

أعود إلى الكدمة الصغيرة المرسومة على مرفقك . . هي حرف مجد

يستحق أن يُعبد.. . إشارة بطولة يُصلّى لها.. .

لم يعد يهتمني صفاء البلّور في الأصابع الشمعية.. . أصبحت أبحث
عن معنى الأصابع قبل الأصابع.. . عن بطولة اليد قبل اليد.

هكذا هدمت المعركة كلّ مفاهيمي الجمالية. فلا تستغربي أن أزهد
بكلّ ما تعبق به خزائنك.. . من أصفر.. . وأسود.. . وليمكي.. . وأقف
ساعاتٍ أمام بقعة زيت تركتها بندقية على قميص مجنّدة من بنات بلادي.. .

ماذا؟ هل غيّرت معركة بور سعيد حواسي أيضًا.. . إنّ رائحة العطر التي
كانت تنسف أعصابي من جذورها في الصّيف الماضي لم تعد ذات موضوع.
أشياء كثيرة كانت تزلزل وجودي في زمن السلام لم تعد تفعل بي شيئًا.. .

وفني، كجمالك، تغيّر يا صديقتي بحركة داخلية تلقائية.. . مدّ أظافره
ونشر ريشه كما يفعل الطائر أمام خطر داهم بدافع من غريزته.. .

لقد أخذت القصائد مكانها في الخنادق.. . وتحت الأسلاك الشائكة،
وحاربت بجميع ما يحمل الحرف من طاقة وقوة وتفجير.. .

البنادق.. . والقصائد.. . والعيون السود.. . كلّها أصبحت فحمًا
مشتعلًا في ليل المعركة.

فيا صديقتي.. . يا ذات القميص المعقود الأكمام.. . والشعر الفوضى،
والفم المصبوغ باللاشيء.. . والكدمة الصغيرة التي تُضمّ وتُعبد.. .

سلامٌ عليك.

نزار قباني

الفصل الخامس عشر: من إخوانيات ميشال عاصي

أديب لبناني (١٩٢٦م - ١٩٩٢م) تخصص بالغة العربية وآدابها. ونال شهادة الدكتوراه فيها. درس في كلية التربية في الجامعة اللبنانية، ثم أصبح رئيساً للجامعة.

له عدة مؤلفات، منها «في النقد الأدبي»، و«سائح في باريس»، و«المعجم المفصل في اللغة والأدب» (بالاشتراك مع الدكتور اميل يعقوب)، و«مذكراتي».

ومن مذكراته نقتطف ما يلي:

* * *

في أوائل كانون الأول خطر لي أن أرسل بطاقات معايدة إلى بعض الأصدقاء، وأن أستهل بعضها بالشعر مما تيسر وجادت به الحال. فخصصت إحداها بالصديق الزحلي الشاعر نزيل باريس، جوزف الصايغ، جاء فيها:

صائغ الدر

يا صائغ الدر أخلاماً على الورق وزارع القفر أطباقاً من الحبق
وعاصِر الخمر أكواباً مُعَتَّقَةً وحاضِن الشمس والأقمار والألق

وَمُبْدِعَ الشَّعْرِ أَكْوَانًا مَلَوْنَةً وَمُطْلِقَ الثَّرِ نَسْرًا طَافَ فِي الْأَفْقِ
بِالله!؟ هَلْ عَوْدَةٌ إِلَى زُحَيْلَتِنَا بَعْدَ الطَّوَافِ بِأَرْضِ التَّيِّهِ وَالْأَرْقِ
وَهَلْ لِقَاءٌ لَنَا، وَالشَّمْسُ غَارِبَةٌ وَاللَّيْلُ يَدْنُو مِنَ الْجَفْنَيْنِ وَالْحَدَقِ
حمل الشاعر الصائغ هذه القصيدة وذهب قاصداً مدينة «برن» في
سويسرا لتمضية فترة الأعياد في ضيافة الصديق المشترك، سفير لبنان هناك،
فؤاد الترك.

وفي أواسط الشهر نفسه، وتحديدًا في ١٤/١٢/١٩٩١ تلقيت في
أوتاوا (كندا) رسالة مشتركة من السفير الترك والشاعر الصائغ مشفوعة
بقصيدة جوابية من نظمهما المشترك أيضًا!

تقول الرسالة:

«ويا عزيزنا ميشال،

الزمان: منتصف الشهر الثاني عشر من العام التاسع قبل الألفين
ميلادية.

المكان: حيّ «مُورِي» في مدينة برن حيث ينعم فؤاد بجمال سويسرا،
وهدوئها، وبراحة العقل والقلب والجسد.

الموضوع: تلاوة قصيدة موجهة من ميشال عاصي إلى جوزف
الصائغ والردّ عليها.

ملاحظات:

١- نظمت هذه القصيدة بالتعاون والتكاتف والتضامن بين جوزف
وفؤاد.

٢- نسجل للتاريخ والمؤرخين أنها المرة الأولى التي حاول فيها فؤاد نظم الشعر.

وُلدت هذه القصيدة في سفارة لبنان بيرن قبل عشرة أيام من ولادة المسيح، وسبعة عشر يومًا من ولادة العام ١٩٩٢.

السبت ١٤/١٢/١٩٩١

جوزف الصايغ وفؤاد الترك

الرسالة كانت بخط فؤاد. والقصيدة بخط جوزف. وهذه أبياتها:

وَرْدُ الْبَالِ

مَا مِثْلُ قَوْلِكَ يَسْتَعْلِي بِهِ الْحَبَقُ	فَإِنَّ قَوْلَكَ وَرْدُ الْبَالِ وَالْعَبَقُ
وَمَا سِوَاكَ لِشَعْرِ إِنْ عَرَضَتْ لَهُ	يَضْفُ الْقَصِيدُ وَيَخْفِقُ قَلْبُهُ الْوَرَقُ
إِنْ أَعْصَرَ الْخَمَرُ فِي دَنِّي وَفِي قَدَحِي	لَأَنْتَ فِي الرُّوحِ أَنْتَ الذُّوقُ وَالْأَلْقُ
اللَّهُ! اللَّهُ! يَا عَاصِي عَلَى قَلَمِي	قَدْ قَصَّرُ الشُّعْرُ حَيْثُ الشُّوقُ يَسْتَبِقُ
هَذَا فؤَادًا وَإِيَانًا وَأَنْتَ هُنَا!	وَتِلْكَ زَحَلَةٌ: طَابَ الشُّعْرُ وَالْعَرَقُ
وَنَحْنُ فِي الْأَرْضِ لَا أَرْضُ تُؤَلَّفُنَا	وَذَاكَ لُبْنَانُ ضَاقَتْ دُونَهُ الطُّرُقُ
وَالْعُمْرُ يَمْضِي، وَصِرْنَا فِي أَوَاخِرِهِ...	مَا أَبْعَدَ الصُّبْحَ إِمَّا شَارَفَ الْغَسَقُ
تَعَالِ! عَجِّلْ! فَمَا إِلَّا عَلَى نَهْرٍ	تُحْيَا الْحَيَاةَ، وَفِيهِ تُطْفَأُ الْحُرْقُ
وَمَا عَلَيْكَ إِذَا مَا غَرَبَتْ صَدَفَتْ	مَا دَامَ زَحْلُ هِيَ الْعَيْنَانِ وَالْحَدَقُ!

وبعد بضعة أيام، تعرّفت أثناء عيديّ الميلاد ورأس السنة ١٩٩٢، إلى عبدالله عبيد، مسؤول القسم العربي في جامعة أوتاوا، وأحد أبناء الكورة

الميامين من طيبي النفس، والأخلاق الكريمة، والثقافة العالية، وإلى عقيلته
الفاضلة، فشعرت كأنني أعرفه منذ الزمن الأبعد، لتقارب طبعينا، وتناسب
مزاجينا، فوافيته بالقصيدة الآتية:

إلى عبدالله عبيد

عَبَدَ الْإِلَهِ! لَغَيْرِ اللَّهِ مَا خَضَعَتْ شَمُّ الْأَنْثُوفِ، وَغَيْرَ اللَّهِ لَمْ تَهَبِ
لَمْ نَأْتَلِفْ عَبَثًا! فِي الْحَقِّ كُنَّا مَعًا فِي الرُّكْبِ نَمْضِي مَعًا، أَنْشُودَةُ الْحَقِّبِ
دُسْتُورُنَا فِي مَغَانِي الْأُنْسِ عِنْدَلَّةً وَفِي رِيَاضِ النَّدَامَى خَمْرَةُ الْعِنَبِ
أَحْلَامُنَا فِي ذُرَى الْأَفْلَاكِ نَزَرَعُهَا وَنَخْصِدُ الزَّرْعَ فِي صَفْوِ ذَنِي لَجِبِ
كَمَارِدِ الْجِنِّ فِي يُمْنَاهُ عَاصِفَةٌ وَفِي الْيَسَارِ كِتَابُ الْمَجْدِ وَالْأَدَبِ
كَالْوَرْدِ نَحْنُ شَدَى، كَالشَّوْكِ سَيْفُ أَدَى كَأَيْلَةِ الْحُبِّ وَالتَّغْرِيدِ وَالْعَجَبِ
مَا ضَرَرْنَا وَطَنٌ فِي الْقُطْبِ نَسْكُنُهُ مَا دَامَ لِلْأَرَزِ نُغْلِي شَامَخَ الْقَبَبِ!

وما كادت رسالتي تصل إليه حتى كنت دخلت إلى المستشفى في
الثاني من شباط ١٩٩٢ مصابًا بالمرض العضال، الذي ما زلت أعاني منه
حتى اليوم، مصارعًا آلامه، مستقويًا بالأمل وبالذكريات على وهن الجسد،
وهزاله. فكتب إلي يقول:

«أخي ميشال. ما إن التقتُ رُوحِي رُوحَكَ حتى تعانقنا في دنيا الأدب
والشعر... كأنهما توأمان! لقد صُعِقْنَا للخبر المزعج، وأَضْنَانَا الأَلَمُ
فَخِرْسَتِ الْأَلْسُن. أَمَلْنَا أَنْ تَكُونَ تِلْكَ غِيْمَةً عَابِرَةً، فَتَعُودَ عِنْدَلَّةً وَلَا أَجْمَلَ،
وَتَلْتَمِمْ حَبَّاتِ الْعَقْدِ، وَتَكْتَمِلَ الْأَعْرَاسُ. إِلَيْكَ أَيْبَاتًا أَوْحَى بِهَا الْعَهْدُ بَيْنَنَا.
فَاقْبِلْهَا وَإِنْ قَصُرَتْ عَنِ اللَّحَاقِ بِكَ، حَبِيبَاتِ نَسْجِهَا قَلْبِي الْجَرِيحُ:
كَانَ لِقَاءُ لَنَا بِالْأَمْسِ نَذْكُرُهُ زَادَ الْحَنِينَ إِلَيْهِ رَوْعَةُ الْأَدَبِ

نَسْرٌ يُحَلِّقُ فِي الْأَجْوَاءِ مُرْتَفِعًا
لَا الْحَرْبُ تُزْعِجُهُ، لَا السُّقْمُ يُرْهِبُهُ
فِي الْجَوِّ جَوَّالٌ، فِي الْبَحْرِ طَوَّافٌ
وَنِيحَ اللَّيَالِي تُصِيبُ بُلْبُلًا غَرْدًا
بِالرُّوحِ تُفْدِي كَرِيمًا عَزَّ مَحِيدُهُ
بِشَسِّ الزَّمَانِ الَّذِي أَضْنَاكَ يَا كَبِيدِي
لَا يَخْشَى نَارًا، وَلَا يَرْتَاعُ مِنْ سُحْبِ
الْعِزِّ شَيْمَتُهُ، مُخَضَّوْضِرَ الْعُشْبِ
فِي الْبَرِّ مِقْدَامٌ «صَنَّاجَةُ الْعَرَبِ»
يَهْوَى الْجَمَالَ قَصِيدًا صِغَ فِي الْهُدْبِ
فَانْقُضْ وَبَالًا وَهَذَا مُنْتَهَى الْأَرْبِ
فَارْجِعْ لِنُحْيِي لَيَالِي الْأُنْسِ وَالطَّرَبِ
أُوتَاوَا فِي ١٦ شَبَاطِ ١٩٩٢ م.

* * *

الفصل السادس عشر: بين ناصيف يمين ونظمي أيوب

هو ناصيف يزبك يمين. ولد في عين دارة (لبنان) سنة ١٩٣٩ م. درس في عين ورقة، ثم عند الآباء اليسوعيين. مجاز في الأدب. مارس الصحافة، وله أقاصيص وترجمات، وعدة كتب في اللغة.

أما نظمي نجيب أيوب فمن مواليد عين الحور (الشوف - لبنان) قصاص وشاعر. درس الأدب العربي في كبريات مدارس لبنان. له رواية «حجر الزاوية».

* * *

كتب نظمي أيوب إلى صديقه ناصيف القصيدة التالية:

خير ما عندي إلى أحبّ مَنْ أُهدي...

نَشَدْتُ الدَّفءَ في كَنَفِ المِلاحِ	لعلَّ الحُسْنَ يُزهِرُ في الجراحِ
فَعَلَقَمَ كُلُّ حُسْنٍ في ضُلوعي	وَحَنَظَلَ مجْدُ حَوّاءِ بِرَاحي
تُرى عَدْنُ المِسرّةِ في احتضارِ	وعِرسُ الأُنسِ ضُربٌ من نواحِ
أمِ الشِدوُ الجنينُ صريعُ دهرِ	تَمَنَّقَ باغتصابِ وافتِضاحِ؟!
هَبِ القلبَ المدمَّرَ طودِ عزمِ	تعالَى في الصّواعقِ والرّياحِ
هَبِ الفكرَ الكنيزَ شموِسَ فهمِ	مؤزعةَ العُقُولِ بكلِّ ناحِ

هَبِ الْعِزَمَ الصَّلِيبَ سِوْفَ حَقٍّ
أَمَّا لِلْعَقْلِ وَالْقَلْبِ انْكَفَاءُ
فَدَيْتُكَ يَا ضَمِيرًا فِي ضَمِيرِي
إِلَى لُقْيَاكَ يَهْفُو كُلُّ نَبْضٍ
إِلَى كَأْسٍ، وَعَذْبُ الْقَوْلِ خَمْرٌ
كَتَبْتُ مِشَاعِرِي وَالْقَلْبُ يُمْلِي
وَحُلُقُكَ مَا اشْتَهَاهُ الذَّوْقُ لُطْفًا
وَعَقْلُكَ بَيِّنَاتٌ مُعْجَزَاتٌ
وَشِعْرُكَ، مَا مَجَالُ النَّسْرِ إِلَّا
يُصْعَدُ سَمَهْرِيًّا فِي اثْتِلَافٍ
يَشِفُّ اللَّفْظُ كِي تَعْرِى الْمَعَانِي
كَذَا نَهَجَ لَذَوْقِ عَبْقَرِيٍّ
صَفَاءٌ فِي سَمُوٍّ وَاقْتِدَارٍ
إِذَا كَانَ الْبُعَادُ الْمُرُّ غُرْمًا
فَحُلْمُ النَّفْسِ غُنْمٌ بِالتِّقَاءِ

تَلْظُتْ فَالْخَوَارِقُ فِي اجْتِرَاحِ
وَوَهْنٌ فِي مِضَامِيرِ الْكَفَاحِ؟!
أَنَا شَوْقُ الْمُسَهَّدِ لِلصَّبَاحِ
كَمَا تَهْفُو الْأَيَّامُ لِلْقِرَاحِ
وَرَوْضُ ضَجٍّ بِالْعَبَقِ الْأَقَاحِ
صَدَقْتُكَ مَا أَتَيْتُكَ لَامْتِدَاحِ
وَنَفْسُكَ طَيِّبُهَا عِطْرُ السَّمَاكِ
وَأَيَّاتُ مِنَ الدَّرِّ الصُّرَاحِ
كَخَفَقِ الْحَرْفِ يَسْمُو بِالْجَنَاحِ
لِقَطْفِ النُّجْمِ، أَوْ كَبْحِ الْجَمَاحِ
فِيَا طَيِّبَ الْمُعَرَّى وَالْوِشَاحِ!..
يُقَعَّدُ لِلْجَهَابِذِ وَالْفِصَاحِ
وَأَعْمَاقِ تَعِزُّ عَلَى الْفَلَاحِ
وَصَحْرَاءَ تَرَامَتْ دُونَ وَاحِ
وَرُغَمَ الْبَيْنِ طَيْفُ الصَّاحِ صَاحِ
نَظْمِي أَيُّوبَ

فردّ عليه ناصيف يمين بالقصيدة التالية مُطَرِّزًا اسمه «نظمي أيوب أخي
الوحيد».

إلى الأخ الحبيب نظمي أيوب

ن نَسِيبَ الرُّوحِ يَا كَأْسِي وَرَاحِي وَيَا بُرَّاءَ يُبْلِسِمُ لِي جِرَاحِي

ظ ظَمِئْتُ إِلَى طِلَاكَ فَجُنَّ شَوْقُ
م مَنَى قَلْبِي عَرَفْتُكَ فِي بَكُورِي
ي يَذُوبُ الْوَجْدُ وَجَدًا حِينَ تَنَازَى
أ أَنَا شَدَوٌ؟! .. أَيَا وَتَرَا شَجِيئًا
ي يَمُوتُ الْهَمُّ عِنْدِي حِينَ تَبْدُو
و وَأَهْفُو، فَالْمَكَارِمُ دَافِقَاتُ
ب بَثْلِ الْخُلُقِ عَطَرُ الذَّوْقِ فَوْحُ
أ أَذَاعَتْ فِي سَمَاءِ الْوَعْدِ طَيْبًا
خ خَمَائِلُ عَهْدِنَا الْأَوْفَى ارْتَعَاشُ
ي يَدُلُّ عَلَى السُّوَى فَالرَّوْضُ زَهْوُ
أ أَخَا الْإِلَهَامِ وَالشَّعْرُ اصْطِخَابُ
ل لَهُ الْفُرْسَانُ تَقْتَحِمُ السَّرَايَا
و وَحِيدًا قَائِقُ فِي الْمِيدَانِ تَرْنُو
ح حَمِيَّتْ ذِمَارَهَا فَالْوَحْيُ عَبْدُ
ي يَلْجُ بِي الْوَفَا لِأَقُولَ حَقًّا
د دَعَائِي: قَائِقُ بَدْرًا فِي مَسَائِي

وَحُمَّ الْخَمْرُ فِي شَفَةِ الْمِلَاحِ
رَجَا نَفْسِي وَجَدْتُكَ فِي رَوَاحِي
وَتَقَرَّبُ.. «فَالْخَوَارِقُ فِي اجْتِرَاحِ»
هُدَى أَنْغَامِهِ يَطْوِي نُوَاحِي
وَيَصْحُو الْحُلُمُ فِي «الزُّهْرِ الصُّبَاحِ»^(١)
عَلَى الْقَسَمَاتِ تَنْضَحُ بِالسَّمَاكِ
بِهِ عَبَقَتْ تَلَاْفِيْفُ الرِّيحِ
بِهِ انْتَشَتِ الزَّنَابِقُ وَالْأَقَاْحِي
وَأَيْكُ الصَّفْرِ يَخْطُرُ بِالْوَشَاحِ
وَأَطْيَارُ ثَبَرُحُ بِالصُّدَاحِ
وَحَمَحَمَةُ الْخَيَالِ بِكُلِّ سَاحِ
فَتُلَوِي دُونَ غُضْبٍ أَوْ رِمَاحِ
إِلَيْكَ عَكَاطُ بِاللَّحْظِ الصُّرَاحِ
مَطِيْعُ وَالْعُرُوشُ إِلَى انْفِسَاحِ! ..
وَمَا قَوْلُ الْحَقِيقَةِ بِامْتِدَاحِ:
وَشَمْسًا يَسْتَنِيرُ بِهَا صَبَاحِي
نَاصِيفُ يَمِينِ

* * *

(١) أولاد الشاعر أيوب .

الفصل السابع عشر: متفرقات

كتب أبو الشيص إلى رجل كان وعده مخدّة فأبطأت عليه :
يا صديقي وأخي في كل ما يعرفو وشده
ليت شعري هل زرعتم بذر كنان المخذة

* * *

أهدى بعض العمال إلى دعبل بن علي الخزاعي برذوناً زمناً^(١) فردّه
وكتب إليه :

وأهديته زمناً فانيّا فلا للركوب ولا للثمن
حملت على زمن شاعراً فسوف يكافي بشعر زمين
أبا الفضل ذمّاً وغرمّاً معاً فما كنت ترجو بهذا الغبن

* * *

ووعده رجل دعبلاً نعلًا يهديها إليه عند قدومه من الحج فأبطأت عليه
فقال دعبل الخزاعي :

وعدت النعل ثم صدفت عنها كأنك تشتهي شئماً وقذفا
فإن لم تُهد لي نعلًا فكُنْها إذا أعجمت بعد النون حرفا

* * *

(١) الزمن: العجوز الضعيف.

حدّث أبو أحمد عن أبيه عن أحمد بن أبي طاهر قال: كتب إليّ أبو علي البصير يستهديني بخورًا كنتُ أهديتُ منه إلى بعض إخواني، والأبيات:

يا شقيقي ويا خليلي إباءً المرجى لكل خير ومير
أنت من أطيب الأنام بخورًا غير أنّي شمتته عند غيري
وهو جمّ لذكّ فابعث بدرج منه إن لم أكن تعدّيت طوري
فكتبْتُ إليه:

قد بعثنا إليك منه بدرج وأزناك منه أطيب زور
بين ندّ وبين عود مطرًا ما له مشبه بنجد وغور
أنت منه أزكى وأطيب عرقًا وهو أزكى من كل طيب ونور
ما تعدّيت فيه طورك عندي فتبخّر منه بأيمن طير

* * *

وحدّث أبو أحمد عن أبيه عن أحمد قال: حدّثني أبو دعامة الشاعرُ قال: كتب العتابي إلى مالك بن طوق يستزيه ويستهديه ويدعوه إلى صلة الرحم والقراة بينه وبينه، وكان مما كتب: إنّ قرابتك من قرّب منك خيرُه، وإن ابن عمك من عمّ نفعه، وإن عشيرتك من أحسن معاشرتكَ، وإن أحبّ الناس إليك أجداهم بالمنفعة عليك، وإن أهداهم إلى مودتك من أهدى إليك، ولذلك أقول:

ولقد بلوتُ الناسَ ثم سبّرتهم ووصلتُ ما قطعوا من الأسبابِ
فإذا القراة لا تُقرّب قاطعًا وإذا المودّة أقرب الأنسابِ

* * *

كتب اسحاق بن ابراهيم الموصلي إلى بعض الجلة يستدعيه:

يَوْمُنَا يَوْمٌ لَّيْنُ الْحَوَاشِي وَطِيءُ النَّوَاجِي وَسَمَاؤُنَا قَدْ أَقْبَلَتْ وَرَعَدَتْ
بِالْخَيْرِ وَبَرَقَتْ. وَأَنْتَ قُطْبُ السُّرُورِ وَنِظَامُ الْأُمُورِ. فَلَا تُفَرِّدُنَا فَنَقِلَ. وَلَا
تَفْرُدَ عَنَّا فَنَذِلَ.

(للقيرواني)

* * *

كتب أبو العباس الغساني كاتب صاحب افريقية لبعض الأصدقاء:

سِرْ إِلَى مَجْلِسٍ يَكَادُ يَسِيرُ شَوْقًا إِلَيْكَ، وَيَطِيرُ بِأَجْنِحَةٍ مِنْ جَوَاهُ حَتَّى
يَحُلَّ بَيْنَ يَدَيْكَ، فَلِلَّهِ دُرٌّ كَمَالِهِ إِنْ طَلَعَتْ بَذْرًا بِأَعْلَاهُ، وَجَمَالِهِ إِنْ ظَهَرَتْ
غُرَّةً بِمُحَيَّاهُ، فَهُوَ أَفْقٌ قَدْ حَوَى نُجُومًا تَتَشَوَّقُ إِلَى طُلُوعِ بَذْرِهَا، وَقَطْرٌ قَدْ
أَشْتَمَلَ عَلَى أَنْهَارٍ تَتَشَوَّقُ إِلَى بَحْرِهَا، لِيَسْتَمِدَّ مِنْهُ. فَإِنْ مَنَنْتَ بِالْحُضُورِ،
وَلَا فَيَا خَيَّةَ السُّرُورِ. قَالَ ابْنُ الزُّبَيْنِ:

قَامَتْ لِعَيْبَتِكَ الدُّنْيَا عَلَى سَاقٍ وَالْكَأْسُ أَصْبَحَ غَضْبَانًا عَلَى السَّاقِي
وَالرَّاحُ قَدْ أَقْسَمَتْ أَنْ لَا تَطِيبَ لَنَا حَتَّى تَرَى وَجْهَكَ الزَّاهِي بِإِشْرَاقِ
وَأَعْيُنُ الزَّهْرِ نَحْوَ الْبَابِ نَاطِرَةٌ وَقَدْ صَعَتْ أُذُنُ السُّوسَانِ لِلطَّاقِ
فَأَسْمَحْ بِجُودِكَ فَضْلًا بِالْحُضُورِ لَنَا مَا دَامَ شَمْلُ مَسَرَّاتِ الْهَنَاءِ بَاقِ
فَلَوْ دُعِيتُ إِلَى هَذَا سَعَيْتُ لَهُ يَا حَبَّذَاكَ عَلَى رَأْسِي وَأَخْذَاقِي

* * *

كتب الصاحب ابن عباد إلى صديق له:

مَجْلِسُنَا يَا سَيِّدِي مُفْتَقِرٌ إِلَيْكَ، مُعَوِّلٌ فِي شَوْقِهِ عَلَيْكَ، وَقَدْ أَبَتْ

رَاحَتُهُ أَنْ تَضْفُو إِلَّا أَنْ تَتَنَاوَلَهَا يُمْنَاكَ، وَأَقْسَمَ غَنَاؤُهُ لَا يَطِيبُ حَتَّى تَعِيَهُ
أُذْنَاكَ. وَنَحْنُ لِعَيْتِكَ كَعِقْدٍ ذَهَبَتْ وَاسِطَتُهُ، وَشَبَابٍ قَدْ أَخَذَتْ جِدَّتُهُ. وَإِذَا
غَابَتْ شَمْسُ السَّمَاءِ فَلَا بُدَّ أَنْ تَذْنُو شَمْسُ الْأَرْضِ مِنَّا. فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تَحْضُرَ
لِتَصِلَ الْوَاسِطَةُ بِالْعِقْدِ، وَنَحْصُلَ بِكَ فِي جَنَّةِ الْخُلْدِ، فَكُنْ إِلَيْنَا أَسْرَعَ مِنْ
السَّهْمِ فِي مَمَرِّهِ، وَالْمَاءِ إِلَى مَقَرِّهِ، لِئَلَّا يَخْبُثَ مِنْ يَوْمِي مَا طَابَ وَيَعُودَ مِنْ
نَوْمِي مَا طَارَ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(للنواجي)

* * *

لَمَّا حُبِسَ إِسْمَاعِيلُ بْنُ عَمَّارِ الْأَسَدِيِّ كَتَبَ مِنَ الْحَبْسِ إِلَى ابْنِ أَخٍ لَهُ
اسْمُهُ مُعَانُ أَيْبَاتًا أَوْلَهَا:

أَبْلِغْ مُعَانًا وَإِخْوَتَهُ قَوْلًا وَمَا عَالِمٌ كَمَنْ جَهَلَا
بِأَنِّي وَالْمُصَبِّحَاتِ مِثِّي يَغْدُونَ طَوْرًا وَتَارَةً رَمَلَا
لَخَائِفٌ أَنْ يَكُونَ وَدُّكُمْ إِيَّايَ بَعْدَ الصَّفَاءِ قَدْ أَقْلَا

فَأَجَابَهُ ابْنُ أَخِيهِ بِقَوْلِهِ:

يَا عَمُّ عُوفِيَتْ مِنْ عَذَابِهِمُ اللَّهُ كَرٍ وَفَارَقْتَ سِجْنَهُمْ عَجِلَا
كَيْفَ تَشْكُو بَنِي أَخِيكَ وَقَدْ أَرْسَلَ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا مَثَلَا
إِنْدَاهُمْ بِالصُّرَاخِ يَنْهَزِمُوا^(١) فَأَنْتَ، يَا عَمُّ، تَبْتَغِي الْعِلَلَا

* * *

كَانَ الشَّيْخُ عَبْدُ الْحَمِيدِ الْبَغْدَادِيُّ، الْمَعْرُوفُ بِابْنِ الصَّبَاغِ، شَاعِرًا،

(١) يشير إلى المثل القائل: «اندأهم بالصراخ يُقَرَّوا»

وأديباً من أدباء بغداد في النصف الأول من القرن التاسع عشر. وكانت بينه وبين شعراء لبنان مراسلات ومساجلات. ومن ذلك قصيدة أرسلها إلى المعلم بطرس كرامة مجيباً عن رسالة، قال فيها:

تَبَسَّمَ الزَّهْرُ عَنْ أَنْفَاسِكُمْ فَسَرَى مِنْ طَيْبِ ذِكْرِكُمْ نَشْرٌ فَأَخْيَانَا
فَمِنْ هُنَاكَ عَشِقْنَاكُمْ وَلَمْ نَرَكُمْ وَالْأُذُنُ تَعَشِقُ قَبْلَ الْعَيْنِ أَحْيَانَا^(١)

* * *

دعا الشاعر خليل مطران أحد أصدقائه إلى مأدبة غداء، وكتب على البطاقة «حمل وادع ينتظركم على ضفاف البردوني». لكن خليل مطران كان مريضاً، وقد مُنِعَ عنه الطعام إلى حين، فردّ على دعوة صديقه بهذه الأبيات:

أَوْشَكْتُ مِنْ جُوعِي أَهْلُلُ عِنْدَمَا حَمَلَ الرَّسُولُ إِلَيَّ أَنْبَاءَ الْحَمَلِ
فَبِحَقِّ وَدُّكُمْ لَوْ أَنِّي قَادِرٌ لَدَرَجْتُ أَنَحُو نَحْوَكُمْ دَرَجَ الْحَجَلِ
لَكُنِّي لَا أَسْتَطِيعُ وَإِنْ لِي عَذْرًا وَلِي مِنْ رَفْضِ دَعْوَتِكُمْ خَجَلِ
دُمْتُمْ وَدَامَ الْأَفْضَلُونَ ضُيُوفُكُمْ فِي غَبْطَةِ أَبَدِ الْأَبِيدِ وَفِي جَدَلِ

* * *

(١) يلاحظ أنّ عجز البيت الثاني ضمّنه الشاعر قصيدته، وهو من قول بشار بن برد.
يا قوم أذني لبعض الحي عاشقة والأذن تعشق قبل العين أحياناً

الفهرس

المقدمة ..	٥
الباب الأول: الأخ في الدين	٧
الفصل الأول: الأخ في الدين الإسلامي	٩
الفصل الثاني: الأخ في الدين المسيحي	١١
الباب الثاني: الأخ في الأمثال	١٣
الفصل الأول: من الأمثال العربيّة	١٥
الفصل الثاني: من الأمثال اللبنانيّة	١٧
الفصل الثالث: من الأمثال العالميّة ..	١٩
الباب الثالث: الأخ في الحكمة ..	٢٣
الفصل الأول: في الحكمة العربيّة ..	٢٥
الفصل الثاني: في الحكمة العالميّة	٢٧
الفصل الثالث: في الشعر العربيّ	٢٩
الباب الرابع: في رثاء الإخوة .	٣٥
١ - متمم بن نويرة	٣٧

٢- قتيلة بنت الحارس	٤٠
٣- الخنساء	٤١
٤- أخت الوليد بن طريف	٤٣
٥- آخرا ن	٤٣
الباب الخامس: من الإخوانيات	
الفصل الأول: من إخوانيات عبد الحميد الكاتب	٤٥
الفصل الثاني: من إخوانيات البحتري	٤٧
الفصل الثالث: من إخوانيات أبي فراس الحمداني	٤٩
الفصل الرابع: من إخوانيات ولي الدين يكن	٥٦
الفصل الخامس: من إخوانيات جبران خليل جبران	٦١
الفصل السادس: من إخوانيات أحمد شوقي	٦٣
الفصل السابع: من إخوانيات أبي القاسم الشابي	٧٤
الفصل الثامن: من إخوانيات معروف الرصافي	٧٧
الفصل التاسع: من إخوانيات مي زيادة	٨٧
الفصل العاشر: من إخوانيات مارون عبّود	٩٤
الفصل الحادي عشر: من إخوانيات طه حسين	٩٧
الفصل الثاني عشر: من إخوانيات توفيق الحكيم	١٠٧
الفصل الثالث عشر: من إخوانيات ميخائيل نعيمة	١١٠
الفصل الرابع عشر: من إخوانيات نزار قباني	١١٦
الفصل الخامس عشر: من إخوانيات نزار قباني	١٢٥

١٢٩.....	الفصل الخامس عشر: من إخوانيات ميشال عاصي
١٣٤..	الفصل السادس عشر: بين ناصيف يمين ونظمي أيوب
١٣٧.....	الفصل السابع عشر: متفرقات
١٤٢.....	فهرس المحتويات

سلسلة «أروع ما قيل»

أروع ما قيل في الوصف	أروع ما قيل في الاجتماعيات
أروع ما قيل في الوطنيات	أروع ما قيل في الإخوانيات
أروع ما قيل من الأدعية	أروع ما قيل في الحب والغزل
أروع ما قيل من أغان وأشعار للأطفال	أروع ما قيل في الحكمة
أروع ما قيل من الأمثال	أروع ما قيل في الخمرة ومجالسها
أروع ما قيل من الحكايات ٢/١	أروع ما قيل في الرثاء
أروع ما قيل من الخطب	أروع ما قيل في الزهد والتصوف
أروع ما قيل من الرباعيات	أروع ما قيل في الزواج
أروع ما "كتب" من الرسائل	أروع ما قيل في الفخر والجماسة
أروع ما قيل من الطرائف	أروع ما قيل في المديح
أروع ما قيل من قصص العشاق ٢/١	أروع ما قيل في المرأة
أروع ما قيل من الموشحات	أروع ما قيل في الموت
أروع ما قيل من النوادر	أروع ما قيل في الهجاء
أروع ما قيل من الوصايا	أروع ما قيل في الوجدانيات